الحج المبرور


مؤسسة
أخبار اليوم

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة والسلام على
سيدنا رسول الله.

نسأل الله أن تكون هذه الكتب
التي تصدر عن مكتبتي خطوة على
طريق الهدى ونور يضيء الطريق للأجيال
والله نسأل الهداية والتوفيق

محمد متولي الشعراوي

الغلاف بريشة
الفنان : سيد عبدالفتاح

الاخـراج الفنـى
عبد الكريم محمود

الفصل الأول



لبيك اللهم لبيك

بحلول موسم الحج فى كل عام تمتلىء القلوب شوقا للذهاب إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما فى ذلك من متعة روحية لا تعادلها متعة أخرى ، من إحساس بالقرب من الله ، ومن انشغال بالله سبحانه وتعالى عن خلقه جميعا سواء كانوا أهلا أو أقارب أو عشيرة أو غير ذلك من صلات القربى .

إن المسافر لأداء فريضة الحج يترك كل شىء ويتفرغ لعبادة الله . . يترك أهله . . وماله . . وأصدقاءه وسلطانه . . إنه يخرج من الحياة التى ألفها ليتقرب من الله فى صلاة وطواف وتلبية وذكر وتسبيح ، لا يكل ولا يمل . . يخضع لله قلبا وقالبا وتزداد طاعته لربه كل يوم . . فتتنزل الرحمات على القلوب ، فتسيل الدموع من العيون ويشعر الإنسان أن الدينا كلها بما فيها ومن فيها قد تضاءلت أمام القرب من الله ورضاه . .

إن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام فرضه الله على المستطيع ، الذى يملك المال والصحة والقدرة ، على أدائه . .

والحج ـ ككل متطلبات الإيمان ـ عطاء ألوهية وليس عطاء ربوبية . . فالله سبحانه وتعالى ينعم على خلقه جميعا بما يحفظ حياتهم من طعام وشراب ومأوى.ولكن إذا جئنا للإيمان فإنه سبحانه لا يكلف إلا من آمن به . . ومن دخل فى عقد إيمانى

مع الله سبحانه وتعالى ، وقال : يارب آمنت بك إلها واحدا أحدا خالقا . . فعلمني كيف أعبدك ، وأمرنى فأطيعك وأنهنى فلا أقترب مما نهيتنى عنه . .

يبدأ الحاج رحلته بقوله : « لبيك اللهم لبيك » ومعنى التلبية انك تجيب دعوة الداعى لك ـ وهو الله سبحانه وتعالى ـ الذى يسّر لك حَجًّ بيته وأعانك عليه بالنفقة والاستطاعة ، وانك بهذه التلبيةٍ تعلنُ خروجك إمتثالا لأمر الله الذى أنعم عليك بأجلِ النعم وأعظمها . . حج بيته العتيق . .

يقول الحاج بعد الإحرام بالحج : لبيك اللهم . . أى لبيك يا من كلفتنى بأداء هذه الشعيرة ، وهذا معناه ترحيب بالتكليف وصفاء النفس ، لتقر بأن كل تكليف لله تعشقه النفس وهو أمر محبوب إليها . .

والتكليف عادة ما يكون شاقا على النفس . . لأنه يقيد حركة الإنسان بأن تأمره بفعل أمر معين . . أو تنهاه عن إتيانه . . مهما يكن موقفك منه من حب أو كراهية . . فالإمتثال لأمر الله هو الدليل على قوة الإيمان . . فالإنسان المؤمن يتلقى التكليف من الله بعشق سواء كان أمرا . . بافعل . . أو نهيا بلا تفعل . .

إن الحاج يترك كل شيء يألفه ، يترك بيته ويترك وطنه ويترك أهله وأولاده ويترك ماله ويترك ثيابه التى يحبها ويترك أشياء كثيرة أحلها الله له ، وهو فى رحلته يتجرد من أشياء كثيرة

ويلتزم الأدب مع الكون كله .. مع الجماد والنبات والحيوان وسائر المخلوقات ..

مع النبات .. فهو لا يقترب من شجرة ليقطع أغصانها ، ومع الطير فلا يصيده .. ومع الخلق فلا يفسد حجه بالجدال مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٩٧ من سورة البقرة)



الحج أشهر معلومات

إن الله سبحانه وتعالى فى فرائضه قيد اختيار الإنسان إما مكانا وإما زمانا . وهناك من العبادات ما لم يقيده الله لا بالزمان ولا بالمكان . . كالشهادة . . شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله تقولها مرة واحدة فى عمرك . . تقولها نهارا أو ليلا أو ضحى . . فى بيتك ، أو فى عملك ، أو فى الطريق . . لا قيود عليها لا من حيث الزمان ولا من حيث المكان . .

الصلاة مثلا عبادة قيدها الله زمانا ، ولم يقيدها مكانا . . أنت تستطيع أن تصلى فى أي مسجد أو فى المصنع أو فى البيت أو الحقل . . المكان أنت حر فى اختياره ولكن الله سبحانه قيدها زمانا ، فكل صلاة لها وقتها ولا تصح الصلاة إلا بدخوله . .

والصوم قيده الله زمانا فى شهر رمضان من كل عام ، ولكن ترك لك حرية المكان . . فأنت تصوم فى أي مكان شئت وفى أي بقعة من الأرض تختار . .

وبالنسبة للزكاة . . فقد قيدها الله زمانا ومقدارا ولكن لم يقيدها مكانا . فزكاة الفطر وقتها فى آخر رمضان . . وزكاة الزروع والثمار ، وهذه تؤدى عند الحصاد ، والزرع لازال فى

الحقل قبل أن يتم نقله إلى التخزين وذلك مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وزكاة المال تجب على المال الذى بلغ النصاب (وهو المقدار الذى تجب فيه الزكاة) من الحول إلى الحول . . أى بانقضاء عام كامل ، إلى غير ذلك من أنواع الزكاة كلها مقيدة زمانا ولكنها غير مقيدة مكانا ، فأينما كنت وجبت عليك تخرجها دون أية شروط بتحديد أرض معينة أو بلدة معينة . .

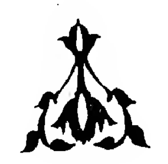
أما الحج فإنه يختلف عن سائر العبادات من حيث إنه مقيد زمانا ومكانا . وعلى هذا فلا يصح أن تحج وأنت فى بيتك أو موطنك ، بل لابد أن تذهب إلى بيت الله الحرام فى مكة ، ولا يصح أن تقف فى يوم عرفة فى أى مكان بل لابد أن تذهب إلى عرفات فى التاسع من ذى الحجة وتقف فى المكان المحدد للوقوف لا تتعداه ، كما لا يحق لك أن تؤدى مناسك الحج فى أي شهر من شهور العام بل لابد أن تكون فى شهر ذى الحجة . .

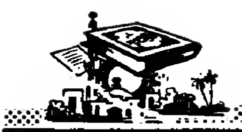
وهكذا نعلم أن الحج هو الفريضة الوحيدة المقيدة زمانا ومكانا ، ولذلك كان جزاؤها غفران الذنوب ، لأنها من أكثر الفرائض مشقة على النفس المؤمنة .. والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٧ من سورة آل عمران)

وسيأتى حديثنا عن هذا الموضوع مستفيضا فى الفصول القادمة إن شاء الله ..





إبراهيم يؤذن بالحج

لقد طلب الله سبحانه وتعالى من إبراهيم عليه السلام أن يؤذن فى الناس بالحج فقال جل جلاله :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ ﴾

(سورة الحج)

وقف إبراهيم عليه السلام فى هذا المكان المقفر المجدب الذى لا ماء فيه ولا زرع ، لم يكن هناك أحد يسمعه ، ولكن أذَّن لأن الله سبحانه وتعالى قال له : عليك الآذان وعلينا البلاغ . وكان من طلاقة قدرة الله أن بلغت هذه الدعوة مسامع كل من كتب الله له أداء هذه الفريضة الجليلة منذ أذن إبراهيم عليه السلام وإلى أن تقوم القيامة . . سمعوا نداء أبينا إبراهيم عليه السلام وهم مازالوا فى ظهور أجدادهم فاستجابوا له . .

لقد جعل الله سبحانه وتعالى بيته الحرام قبلة للمؤمن يتجه إليه كل يوم خمس مرات فى الصلاة . وهكذا شاءت إرادة الله أن ينشغل فؤاد المؤمن بهذا البيت وهو بعيد عنه إلى أن يؤدى فريضة الحج ليتم بها نعمة الإيمان بالله . .

فكأن كل إنسان مسلم قد أعده الله إعدادا نفسيا للحج قبل أن يحج بسنوات .. وقد يموت الإنسان ولا يحج ، ولكن قلبه يظل مشغولا بالبيت معلقا به ، يتجه إليه خمس مرات كل يوم ..

والحج فريضة تقتضى أشياء كثيرة فى حركة الحياة .. فهى تقتضى مجهودا وطاقة وعونا من الله بالقوة والقدرة والعافية ، وتقتضى حركة ، لأن الإنسان عليه أن يعمل أكثر من حاجته المعيشية ليدخر مصاريف الحج ، فلو عمل على قدر حاجته لكسب وأنفق ما يكفى يومه وما ادخر شيئا ليحج به ، ولذلك فإن المؤمن يطلب من الله طاقة عمل تتسع له ولمن يعول ولما سينفقه بعد ذلك عندما يكون حاجا ..

كل هذه الإعدادات سواء بالنسبة للصحة أو بالنسبة للعمل أو بالنسبة للطاقة تعطى أكثر من الحاجة .. كل هذه نعم من الله .. هذه النعم إذا توافرت لك تستحق أن تحمد الله عليها بأن تقول : « لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .. الحمد لأنك أعنتنى بالطاقة والقدرة والإمكانيات وأمددتنى بنفقات حجى ونفقات أسرتى مدة غيابى .. لك الحمد لأنك أنعمت على بكل هذه النعم .. التى مهما توالى شكرى عليها فلن توفيك حقك من الثناء والحمد ..

ولابد أن نلاحظ الدقة فى التعبير بالنسبة لشعار الحج .. فالحاج يقول : لبيك اللهم لبيك ، إن الحمد والنعمة ..

وكان السياق يقتضى أن يقال : إن النعمة والحمد لك لأن الحمد لا يكون الا على نعمة . ولكن هنا يأتى الحمد وبعد ذلك النعمة لماذا ؟ لأنك وأنت تحمد فإن حمدك كان على نعمة سبقت . . فالله سبحانه وتعالى قد أعطاك كل هذه النعم التى مكنتك من أن تبدأ رحلة الحج . فأنت تحمده على نعمة قد تمت فعلا ، وأنت تحمد الله على نعمة قادمة وهى نعمة الإيمان التى جعلتك تقوم بهذا التكليف . فكأن النعم مستمرة من الله والحمد مستمر لله ، فنحن نحمده سبحانه على نعم مضت وعلى نعم قادمة . . ونعم الله دائمة لا تنفد ولا تنتهى مصداقا لقوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

ويقول الحاج وهو يلبى : « إن الحمد والنعمة لك والملك » ومادام الملك لله سبحانه وتعالى وسيظل كذلك . . فعلى الإنسان ألا يخشى شيئا فى الدنيا . .

يقول الله فى الحديث القدسى الشريف :

(يا إبن آدم لا تخف من ذى سلطان مادام سلطانى وملكى لا يزول . لا تخف من فوات الرزق مادامت خزائنى مملوءة لا تنفد . خلقت الأشياء كلها من أجلك . وخلقتك من أجلى فسر فى طاعتى يطعك كل شىء . لى عليك فريضة ولك على رزق . فإن خالفتنى فى فريضتى لم أخالفك فى رزقك ان رضيتَ

بما قسمته لك أرحت قلبك . وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتى وجلالى لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها كركض الوحوش فى البرية ولا ينالك منها إلا ماقسمته لك وكنت عندى مذموما) . .

وقول الحق : « لا شريك لك » حتى يدخل الإطمئنان فى قلب المؤمن بأن الله واحد أحد . . الله يريد أن يطمئننا بأنه واحد لا شريك له ينازعه فيما يريد . . هذه الوحدانية نعمة كبرى لابد أن نحمد الله عليها لأنه لو كان هناك شريك لله لفسدت الأرض ولضاعت مصالح الناس بين إله يريد ، وإله لا يريد . .



إتمام نعمة الله



ويجب أن نلاحظ أن النسك الوحيد الذى يعطى المؤمن لقبا مميزا هو الحج ، فأنت لا تقول : المصلى فلان لمن يواظب على الصلاة ، ولا تقول : المزكى فلان لأنه يؤدى الزكاة ، ولكن تقول : الحاج فلان . لمن حج بيت الله الحرام . .

إن الحج إعلان بتمام نعمة الله على الإنسان ، وتمام نعمة الله فى عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، لأنك ما حججت إلا عن قدرة أمدك الله بها بمقتضى نعم الربوبية . . فعندما ينادى الناس : الحاج فلان . . نعلم ان الله قد أنعم عليه إنعاما جزيلا . . أنعم عليه بنعمة الإيمان بالله وهى أجل النعم ، وبنعمة الإيمان بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومادام قد قرر أن يحج فلابد أن يكون مؤديا لجميع ما كُلِّفَ به من صلاة وزكاة وصيام . . وهو يريد بأداء فريضة الحج أن يستوفى أركان الإسلام الخمسة وذلك ليكون ممن خاطبهم ربهم بهذه الآية الكريمة التى نزلت فى حجة الوداع . . وهى قوله عز وجل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ من سورة المائدة)

أى أتممت واستوفيت كل أركان الدين . . إستوفيت الصلاة بذهابك إلى البيت الحرام لتصلى فيه . . والحج فيه زكاة حيث إنه عبادة مالية وبدنية فى آن واحد لأنك تنفق مالك فى سبيل الله . . والحج فيه من الصوم لأنك تبتعد عن شهوات الجسد مادمت محرما . . والحج فيه أولا وقبل كل شىء شهادة ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، لأنك تأتى تلبية لأمر الله سبحانه وتعالى وطاعة له وتقوم بمناسك الحج كما علمها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

إن عبودية الإنسان لله تقتضى أن نبتعد عن التعالى على بعضنا البعض . . فإذا ذهبنا إلى المسجد للصلاة . . فإن مقتضى المساواة أن من يصل أولا . . يجلس أولا ، بصرف النظر عن منصبه أو غناه أو فقره أو منزلته من الدنيا . . إنك تجد بواب العمارة مثلا فى الصف الأول وصاحب العمارة فى الصف الأخير . . .

إن هذه المساواة فى العبودية لله تعالى تخرج التعالى من النفس وتجعلها تتواضع بحيث نحس جميعا اننا نقف أمام إله لا ينظر إلى صورنا وهيئتنا ، وإنما ينظر إلى قلوبنا . . لأنها معيار التفاوت بين إنسان وآخر . . بغض النظر عن مستواه الفكرى أو المادى . . بمعنى أن كل جماعة تقام فى مسجد من مساجد الله مساواتهم وخضوعهم وذلتهم لله تكون فى نطاق محدود . .

لكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المساواة والخضوع ليس فى بيئة محدودة ، ولكن فى نطاق عالمى ، وفى

بيئة عالمية تجمع كل أجناس الأرض . . الأمم القوية والأمم الضعيفة . . القوي وصاحب الجاه ، والسلطان ومن لا يملك شيئا . . هؤلاء لابد أن يكون لهم موقف يتناسب مع عظمة الحج .

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يربى فينا مقومات هذا الموقف فيقول : إنكم تختلفون فى زيكم وفى هيئاتكم وفى لباسكم حسب مكانة كل إنسان فى مجتمعه وتتفاوتون فى انتقاء نوع الأقمشة التى تلبسونها وطريقة التفصيل . . ويريد الله سبحانه وتعالى فى الحج ألا يتميز بعضنا على بعض لا فى الهيئة ولا فى الملبس . . نتميز كما شئنا فى بلادنا وبين أهلينا . . ولكن هنا وعندما نصل إلى بيت الله الحرام . . لابد أن نقف أمامه متساوين كما خلقنا وكما سنقف أمامه يوم القيامة .

إنه يريدنا عبادا له نلبس لباسا واحدا لا يختلف فيه أحد عن الآخر ، نخلع نعم الدنيا ونتخلى عن مراكزنا ، ومتى وصلنا إلى حدود البيت تنتهى هذه الميزة ، فملابس الإحرام توضع على الجسم بلا مخيط ، الكل يلتزم بزى واحد ونوع واحد . . وبهذا الالتزام الذى فرضه الله ينتهى أول مظهر من مظاهر التميز والتعالى بالملابس والمراكز .



التأدب مع أجناس الكون

وكما أخرج الله الحاج مما ألف من أهل وولد ومال واعتياد رفاهية وأسلوب حياة ، وكما أخرجه من التميز فى الثياب ، ألزمه بالتأدب مع كل أجناس الكون . . مع الجماد فيقبل الحجر الأسود أو يشير إليه ، ومع النبات فلا يقطع شجرة ، ومع الحيوان فلا يصطاده ، ومع الإنسان فلا يتشاجر ولا يجادل . . وهكذا يعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف نتأدب مع أجناس الكون . .

فى هذه الرحلة المباركة يتعلم الإنسان كيف يتنازل عن كبريائه وسيادته فى هذا الكون إلى أدنى الأجناس ـ وهو الجماد ـ لكى يقبِّله ويتزاحم على تقبيله فلا يوجد من هو عظيم بذاته ، إنما العظمة حقيقة هى أن تجعل اختيارك متسقا ومنسجما ومتوافقا مع مراد الله ووفق منهج الله . .

فى هذا الركن الخاتم من أركان الإسلام الخمسة يقول الله لعبده : إلزم أدبك مع كل أجناس الكون فليست السيادة لك بذاتك ولكن السيادة جاءتك بتفضيل الله لك . .

ويجب أن تلتفت إلى ما تطالبك به هذه الشعيرة . . وأن تمعن النظر والتفكر فيه حتى تفهم مطلوب الله منك . . ولتدرك أن العلة فى الأمر . . فى الإيمان . . فى الطاعة ، فالله هو الذى

قال : قَبِّل هذا الحجر ، وإرجم هذا الحجر ! فلا فى التقبيل تفضيل ذاتى ، ولا فى الرجم تفضيل ذاتى ، ولكنها طاعة لأمر الله . . ولذلك فهى لا تخضع لفلسفات العقل ، ولكنها تخضع لطاعة الإيمان . .

إن أول شيء حين تبدأ رحلة الحج ـ كما قلنا ـ هو التلبية . . وهى إستجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام عندما أذن فى الناس بالحج . . ثم بعد ذلك عليك أن تتجرد من الكبر على غيرك وأن تخلع الثياب الفاخرة وتهجر البيت المعد اعدادا خاصا لراحتك ، والأولاد والأصدقاء والأقارب وجاهك ومالك . . كل هذا تتركه خلفك وتذهب إلى بيت الله الحرام متجردا محرما ، تاركا الدنيا وراء ظهرك . . ليس على جسدك سوى قماش غير مخيط يشبه الكفن الذى تخرج به من الدنيا . .



البكاء عند البيت



عندما تدخل بيت الله الحرام وتطوف حوله تجد الدموع تملأ عينيك لماذا ؟

كثير من الناس لا يعرفون لهذا سببا ولكن البكاء فى هذا المشهد تعبير عن ترك الكبرياء الذى طالما صاحبك ، وعلى قدر ما تذرف من دموع . . على قدر ما يذهب عنك من كبرياء.وإذا كان البكاء مظهرا من مظاهر الضعف والحزن ، فإنه فى الحج ليس كذلك . .

إنه إحساس بالخضوع والعبودية ، إحساس بأنك قد تخليت عن كل شيء وعرفت قدرك الحقيقى تأتى إلى هذا المكان تريد أن تعلن ندمك على ما فعلت وتضرعك لله سبحانه وتعالى ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

هذا القرب الشديد من الله وإحساسك به فى كل لحظة . . هو الذى يجعل للبكاء روحانية تغلب عليها الفرحة ، فرحة التخلص من الآثام . . فرحة رضاء الله عنه الذى يحسه ويدركه . . فرحة الإعتراف بالخطأ الذى يعنى عدم العودة بالتوبة . .

إنها قوة الإيمان الذى يدفع الإنسان إلى التخلى عن كل

ما يشوب عقيدته وسلوكه من خطأ وانحراف . إن التخلى عن الكبر قوة ، وطلب الرحمة والمغفرة قوة . .

إن كل من مر بهذه الأحاسيس الجياشة يعرف جيدا إن نفسه قد ارتاحت بعد البكاء . . وكأن قلبه قد غسلته هذه الدموع التى سالت من عينيه . . الكل يبكى على قدر ما أسرف على نفسه وعلى قدر ما خالف . .

والعجيب انك بعد أن ترتاح نفسك تشتاق مرة أخرى إلى أن تعود إلى ما يبكيك . . فتأتى مرة ثانية وثالثة إلى الحج ولكن ليس فى كل مرة تبكى مثل المرة الأولى . . المرة الأولى كان البكاء فيها بحرقة وبغزارة ، والثانية أقل ، والثالثة أقل . . لماذا ؟!

إنك فى كل مرة تزداد صفاء وتزداد إعتدالا فى منهجك فى الحياة ، ومتى دخلت المسجد الحرام ورأيت الكعبة شغلت بنفسك وحدها ونسيت كل شىء . فأنت مشغول بكيف تصلى وكيف تطوف وكيف تسعى وبماذا تدعو وماذا تقول . . أنت مشغول بالله عمن حولك ومادمت مشغولا بالخالق جل جلاله . . فلن يتسع قلبك لسواه . . حتى أولادك لن يخطروا على بالك إلا بانتهاء المناسك . . ويتعجب الناس لذلك لكن . . لا مجال للعجب . .

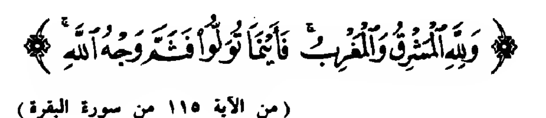
تعظيم الكعبة



يقول بعض الناس إن الإختلاط بين الرجال والنساء قد حرمه الدين .. فلماذا لم يمنع الاختلاط فى الطواف ؟ إننا نشاهد الرجال والنساء وهم يطوفون لا يكاد يمر الواحد منهم إلا بجهد جهيد .. من الزحام الشديد .. ونقول لهؤلاء أن كل طائف وطائفة مشغول بما هو فيه .. لقد تراجعت النوازع وتلاشت النزغات .. فلم يعد أحد يدرى بمن حوله .. كل مشغول بالله .. مشغول بعبادته مشغول بنفسه ..

وبالنسبة للصلاة فى بيت الله الحرام تجد كل الاتجاهات فى الصلاة قد اختلطت كيف ؟ نحن حين نصلى فى مساجدنا فى بلادنا بعضنا يتجه شرقا وبعضنا غربا وآخرون شمالا وآخرون جنوبا . ولكن عندما نصل إلى بيت الله الحرام فإننا لا نلتزم بهذه الإتجاهات ..

هل يجوز لى فى مصر وأنا فى أحد المساجد أن أصلى إلى الركن اليمانى ؟ هل أفعل ذلك عندما أذهب إلى الكعبة .. أبحث عن الركن اليمانى لأصلى إليه .. لا .. بل أصلى إلى ركن من أركان الكعبة وأتذكر قول الله تعالى :



(من الآية ١١٥ من سورة البقرة)

هذه هى عظمة العبادة . .

أنت فى بيت الله الحرام تكون الكعبة كلها أمامك ، والواجب عليك أن تعظم كل مكان فيها ، كل جزء منها ، ولا يتم ذلك إلا بالطواف حولها .

وقد قالوا : إن الطواف يكفى أن يكون مرة حتى يحقق هذا المعنى ، ولكن الكعبة على هيئة البيت المعمور ، فكأنك إذا سرت فى جو الكعبة تنتهى إلى البيت المعمور .

إن الذين يصلون فى الدور الثالث فى الحرم يكونون أعلى من إرتفاع الكعبة ولكنهم يستقبلون جوها . . فجو الكعبة يمثل الكعبة حتى البيت المعمور فى السماء السابعة . .

فلو كنت تستقل طائرة متجهة إلى الكعبة تصلى فيها وأنت متجه إلى جو الكعبة . . ولأن السماوات سبع فتقول لمن يرى أن الطواف مرة واحدة حول الكعبة تعظيم لكل أجزائها نقول له : تمثل المعراج فإنك إذا قضيت الأشواط السبعة أمام الكعبة فكأنك عرجت إلى السماوات السبع بشرط أن يكون فى قلبك صفاء وإشراق . .

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . . ولا حرج على فضل الله المنعم . . الذى شملت عطاياه جميع الخلائق .

الفصل الثانى



مقـام إبـراهيم

قبل أن نتحدث عن الحج . . لابد أن نعطى لمحة سريعة عن تاريخ البيت الحرام . . الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه الكريم :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هذا هو تاريخ التكوين . . البيت وضع للناس إبتداء من آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . . ولابد أن يكون واضع هذا البيت هو الله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الذى أقامه ، وهو الذى حدد مكانه . . لأنه مادام موضوعا للناس ، فلابد أن يكون قد وُجِدَ قبل أن يوجد الناس . . وهو قد وضع ساعة خلق الكون ، لقد شاءت إرادته سبحانه وتعالى حين خلق الكون أن يجعل له بيتا ليحج إليه آدم وذريته ، وقد حج آدم إليه . .

بعض الناس يربطون البيت بإبراهيم عليه السلام ، وإنه أقامه بتكليف من الله . ونقول لهذا البعض : إفهموا جيدا عن الله . . البيت وُضِعَ للناس . . فكأنه من بداية آدم والبيت موجود ، ولكن الله أمر إبراهيم عليه السلام أن يأخذ إمرأته هاجر وإبنه إسماعيل إلى الوادى الذى ليس فيه زرع وليس فيه ماء عند البيت الحرام .

يقول تبارك وتعالى فى القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الحج)

ومعنى بوأنا أننا بيَّنَّا لإبراهيم مكان البيت وحددناه له وعن هذا البيت يقول الله تبارك وتعالى حاكيا دعاء إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ من سورة إبراهيم)

أخذ إبراهيم زوجته هاجر وإبنهما إسماعيل وكان طفلا رضيعا وتركهما عند البيت الحرام المحدد من الله سبحانه وتعالى منذ خلق الكون . . إذن فما هو دور إبراهيم وماذا فعل ؟

الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يرفع القواعد من البيت . . أى يقيم بناء مرتفعا على الأرض ليدل الناس على مكان البيت . . ليعرف الناس أن هذا بيت الله الحرام وهذا مكانه .

الكعبة .. علامة للبيت الحرام

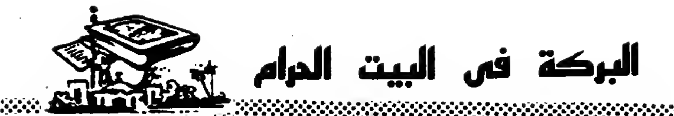
ويجب أن يعرف الناس أن الكعبة المشرفة ليست هى بيت الله الحرام . . ولكنها العلامة التى تدل على أن هنا بيت الله الحرام . . بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ من سورة البقرة)

لقد أشرك الله سبحانه وتعالى إسماعيل مع أبيه إبراهيم فى رفع القواعد من البيت . . حتى يستطيع أن يعين والده فى البناء . . فكأن القواعد لم يبنها إبراهيم إلا بعد أن كبر إسماعيل ليساعد أباه . .

بعض الناس يعتقد أن البيت الحرام هو الكعبة . . وهذا غير صحيح ، فالبيت الحرام هو المكان الذى بنيت فيه الكعبة . . وهناك فرق بين المكان والعلامة الدالة على المكان وهى المكين . . إذن فما فعله إبراهيم هو أنه رفع القواعد . والإرتفاع كما نعلم هو البعد الثالث . . فهناك الطول والعرض لكل مساحة ، ثم يأتى بعد ذلك البعد الثالث وهو الإرتفاع . . أما مكان البيت نفسه فهو الذى أسكن فيه زوجته هاجر وطفلهما الرضيع إسماعيل . .



البركة فى البيت الحرام

يصف الله سبحانه وتعالى بيته بأنه مبارك . . والبركة هى أن يعطى الشيء أكثر مما تتوقع . فإذا زرع إنسان مثلا قمحا . . والفدان يعطى عادة خمسة أرادب . . فإذا أعطاه خمسة عشر أردبا . نقول إن هذه بركة . . إذن هناك عطاء ، وهناك ما هو فوق العطاء . .

إن البيت الحرام تملؤه البركة . . بركة الرضا ، وبركة منع الأذى عن الناس ، وبركة الإيمان يملأ نفسك ، وبركة خشية الله ، وبركة قتل الغرور فى النفس . وكل إنسان فى بيت الله الحرام متساو مع الإنسان الآخر . . بصرف النظر عن تفاوت منازلهما فى الدنيا ، وبركة أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى الثواب ، وبركة مضاعفة الحسنات فى هذا البيت ، وإذا كانت الصلاة بمائة ألف . . فالحسنة أيضا بمائة ألف حسنة . . بينما فى غير بيت الله الحرام الحسنة بعشر أمثالها . .

ومن البركة كذلك أن صدور الناس تتسع للناس . . فالملايين تفد إلى مكة للحج ، والإمكانيات ـ مهما توافرت ـ فى مكة فلن تتسع لاستقبال كل هؤلاء الناس الذين أتوا من قارات الدنيا الخمس . . ومن كل فج عميق . .

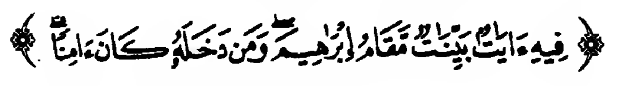
إن الصدور تتسع والأمكنة أيضا ، فنجد العشرة ينامون فى

حجرة وهم مرتاحون . . بينما فى غير مكة لو نام إثنان فى حجرة لتضايقا . . والبركة فى الحج انك تمتنع عن كل إثم . . فكل فترة مرت بك من الزمان لا إثم فيها فهى بركة . . وأنت فى الحج يبارك الله لك فى جميع أوقاتك فلا تفعل إلا الخير وعمل الخيرات هنا مضاعف بلا حد ولا عد . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) . .

إنها بركة واسعة جدا . . إمتدت من الدنيا إلى الآخرة . . ويريد الله من الإنسان أن يعيش منهجه ، ولا توجد فترة يعيش فيها الإنسان منهج الله أكثر من فترة الحج . . قبل الأذان يهرول إلى بيت الله الحرام ، ويظل جالسا ويصلى ويسبح ويقرأ القرآن ويستحى أن يقدم على معصية . . أو يمر عليه الوقت ولا يصلى جماعة . . ولا يشغل نفسه إلا بطاعة الله . .

الحق تبارك وتعالى يقول : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . . العالمين جمع عالم ، والعالم هو ما سوى الله . . وهم أجناس متعددة . . هناك عالم الملائكة وعالم الجن ، وهناك عالم الإنسان وغير ذلك . . والمقصود هو إن الإيمان منثور فى الكون كله بين جميع أجناس الأرض ، وفى موسم الحج تجتمع هذه الأجناس فى بيت الله الحرام . . الحق جل جلاله يقول :



(من الآية ٩٧ من سورة آل عمران)

الآيات البينات ما هى ؟

ما هى الآيات البينات الموجودة فى البيت ؟ لم يرد فى القرآن الكريم إلا قوله تعالى : « مقام ابراهيم » . . لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى هذا المقام . وهو حجر كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام وهو يرفع القواعد من البيت . . كان فى مقدور إبراهيم عليه السلام أن يرفع القواعد من البيت . . على قدر إرتفاع قامته . . ولكن عشقه للمنهج ولتكليف الله جعله يأتى بحجر ليزيد إرتفاع قواعد البيت . .

الله سبحانه قال : « آيات بينات » وهى جمع . . وجاء : « مقام إبراهيم » . . مفردا . . نقول لو دققت الفهم . . ستجد أن هناك آيات كثيرة فى مقام إبراهيم . . ذلك أن النعمة الواحدة إذا نظرت إلى مكوناتها تجد نعما كثيرة . . ولذلك يقول الله تبارك وتعالى :



﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

(من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم)

قال (نعمة) ولم يقل سبحانه نعم الله ، لأن النعمة الواحدة تنطوى على نعم كثيرة كذلك فى مقام إبراهيم آيات كثيرة . . أولها أن إبراهيم أدى تكليف الله له بعشق وحب ، يتمثل فى رغبته فى إعلائه وتحسينه وإتقانه ولم يدخر جهدا فى سبيل ذلك

والإتقان فى العمل دليل حبك له وهذا من أسرار جمال الكون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) . .

فإذا كان الله تعالى قال : « فيه آيات بينات مقام إبراهيم » . . فلابد أن نرى ماذا فى مقام إبراهيم . . فإبراهيم عليه السلام كان أمة . . فقد اجتمعت فيه من خصال الخير ما لا تجتمع إلا فى أمة . فالخير لا يجتمع فى فرد واحد وإنما يجتمع فى أمة . . هذا أمين ، وهذا صادق ، وهذا كريم . . ولكن خصال الخير كلها اجتمعت فى إبراهيم عليه السلام . .

وإبراهيم كما عشق التكليف صبر على ما ابتلاه الله به فنجح فى الابتلاء وأداه على أحسن ما يكون الأداء . . وأقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ من سورة البقرة)

ما هى الكلمات التى إبتلى بها إبراهيم ؟ لقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يذبح إبنه إسماعيل ، وهو إبنه الوحيد والذى بلغ سن الشباب . فماذا كان موقف إبراهيم من الأمر الإلهى . . هل تباطأ فى التنفيذ ؟ هل دعا الله أن يرحم شيخوخته وأن يعفو عن إبنه الوحيد ؟ لا . . وإنما رغم قسوة الإبتلاء شرع فى التنفيذ . . هذه آية أن تؤدى التكليف وتصبر على الإبتلاء . . برضاء تام عن الله . .

آية أخرى . . عند بناء الكعبة أراد إبراهيم أن يؤدى حكم الله فى رفع قواعد البيت . . ليس بقدر استطاعته ـ كما قلنا ـ ولكنه تحايل ليزيد من هذه الإستطاعة . . فجاء بالحجر لتعلو القواعد بمقدار علو الحجر . . إذا نظرت إلى الحجر ـ وهو موجود على بعد أمتار من الكعبة ـ تجد أن هناك آثار قدمين . . إنهم يقولون إن إبراهيم عليه السلام عندما وقف على الحجر خشع الحجر ولان . . فطبعت آثار القدمين عليه . وهناك قول آخر هو إن إبراهيم احتال لنفسه لعمل مكان لقدميه . . حتى إذا وقف فوق الحجر يكون ثابتا ولا تختل حركته . .

هذه كلها آيات . . تلفتنا إلى أننا لابد أن نأخذ تكليف الله ونؤديه بكمال وبعشق . . لماذا ؟ لأن الكمال والإتقان إشاعة لنعم الله فى الوجود . . فأنت إن رأيت شيئا متقنا تقول الله . . وغيرك يقول ذلك . . والذى لا يتقن عمله حرم الوجود من إدراك الجمال فى الكون . . والله سبحانه هو مصدر الجمال وهو سبحانه جميل يحب الجمال . .



من دخله كان آمنا



يقول الحق تبارك وتعالى : « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » أى لا يتعرض أحد للإعتداء . . وهنا قضية كونية وقضية شرعية . .

بعض المشككين قال : أنه فى زمن القرامطة دخل البيت أناس للإحتماء وطلب الأمان . . لكن رغم هذا دخل إبن قرمط البيت وأخذ يقتل الناس فيه . . وحدث ذلك منذ سنوات من جماعة جاهيمان فما هو الأمان المقصود ولماذا لم يتحقق فى هذين المثلين ؟

نقول إن قول الله تعالى : « ومن دخله كان آمنا » هو أمر تكليفى وهو عرضة أن يطاع وأن يعصى . . فالذى أطاع الأمر التكليفى أمَّنَ من دخل بيت الله الحرام ، والذى عصى لم يُؤَمِّنْ من دخله ، وهذا لا يناقض قوله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » لأننا بإزاء قضية كونية . . لأنها حدثت ، وبإزاء قضية شرعية من حيث الطاعة والمخالفة .

إن الله كما يطلب من عباده الصلاة والزكاة والصوم . . يطلب منهم أيضا أن يُؤَمِّنوا من يدخل بيت الله الحرام . إنها قضية شرعية يطيعها من أطاع المنهج ويعصاها من عصاه . . وعلى الطائعين أن يحافظوا على أمن مَنْ فى الحرم كما أمر الله . .

وهذا يتطلب أن يكون الإنسان لين الجانب ولا يتشاجر أو يتجادل أو يفعل ما يثير الشقاق والتضارب . .

ومعنى قوله تعالى : « ومن دخله كان آمنا » . . أى من دخله فأمنوه . . ولابد أن تكون هناك جماعة لتأمين من يدخل بيت الله الحرام . . فهذه ليست قضية فردية بل هى قضية عامة أيضا ، يقوم بها مراقبون لا يسمحون بإشاعة الفوضى أو الفتنة أو الشغب أو الترويج لمنهج معين داخل الحرم لأن الله سبحانه وتعالى يقوول فى شأن بيته الحرام :



(من الآية ٢٥ من سورة الحج)

أى كل من يقاتل فى الحرم لابد أن يؤخذ بعذاب أليم فى الدنيا والآخرة . . عذاب أليم فى الدنيا بأن يقتل ولا يقاتل . . أى لا يقبل منه استسلام . . إنما يقتل لأنه عبث بأمن الحرم . . بينما كان يجب عليه أن يحميه ويحترمه لأمر الله . . أما فى الآخرة فالله يعذبه عذابا أليما يتناسب مع بشاعة جريمته . . الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

(من الآية ١٢٥ من سورة البقرة)

ومعنى قوله تعالى (مثوبة للناس) أى يثوبون إليه ،

يرجعون إلى الله ، ومادامُوا يرجعون إلى الله . . ويظل العبد يعيش فى مناسك الله وتشريعاته فترة من الزمن ، إلى أن تألف نفسه الطاعة . . فإذا ألفت الطاعة إستمرت عليها . . وإذا عاد إلى بلده استحيا أن يراه الناس على معصية . .

ومن شعائر الله فى الحج والعمرة أشياء تتعلق بقضايا الكون . . فأنت بعد الطواف تسعى . . هذا السعى بين الصفا والمروة ـ وهما ربوتان تسعى بينهما سبعة أشواط مثل الطواف ـ .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نستحضر فى هذه الشعيرة قضية إيمانية . . هى أن الله خلق هذا الكون وجعله يعمل بالأسباب ، فالذى يأخذ بأسباب الحياة ـ مؤمنا كان أو كافرا ـ ويتقنها تعطيه ، ولكنه سبحانه يريد أن يلفتنا فى نفس الوقت إلى أن هناك خالق الأسباب وهو سبحانه فوق الأسباب . . فالله يرزق من يشاء بحساب وبغير حساب ، إنه سبحانه يدلك على أسباب الرزق . . إن أحسنتها أخذت ، وإن لم تحسنها لا تعطيك . . ولكن إياك أن تفهم أن الأسباب وحدها هى التى تعطى . . أنت تأخذ بالأسباب فإن شاء الله أعطتك ، ويجب أن يكون قلبك كله مع خالق الأسباب . .

وهناك فرق بين عطاء الله بالأسباب وبين عطائه المباشر . . فى الحج الله يلفتنا إلى ذلك فيجعلنا نسعى بين الصفا والمروة لنتذكر قصة هاجر وإبنها إسماعيل حينما جاء إبراهيم بهما إلى هذا المكان . . الذى لا زرع فيه ولا ماء ولا وسائل حياة . .

فى هذا المكان الخالى من وسائل إستبقاء الحياة ترك إبراهيم زوجته وإبنه الرضيع ليلفتنا إلى قضية كونية . . فعندما انطلق راجعا أمسكت هاجر بزمام دابته وقالت لمن تتركنا ؟ فلم يجب إبراهيم . . فقالت هاجر : آالله أمرك بذلك ؟ فأشار إليها بنعم . . فقالت إذن لن يضيعنا . .

هذه هى القضية الإيمانية الأولى . . إن الله إذا أنزلك مكانا فإنه لن يضيعك . . مهما كانت الأسباب عاجزة عن أن تعطيك . .

ماذا فعلت هاجر عليها السلام ؟ إنها نزلت على حكم الله وإرتضته . . ثم ماذا حدث ؟ عطش إبنها الرضيع وأرادت أن تسقيه . . فى هذه الحالة يجب أن تأخذ بالأسباب وتبحث عن عين ماء . . أو بئر أو قافلة تسير ومعها ماء وعليها أن تبذل الجهد وتصعد على ربوة المروة لتكشف ما حولها علها تجد شجرة أو طيرا أو ناسا . . وأسرعت هاجر إلى ربوة الصفا . . فلم تجد ماء ولا أثرا للحياة . . فرجعت إلى ربوة المروة من جديد فلم تجد شيئا . . وعادت إلى الصفا ثم المروة . . وأخذت تهرول إلى أن تكرر ذلك سبع مرات ، ولكنها لم تجد شيئا . . وكانت هذه الهرولة بين الصفا والمروة هى أقصى ما تستطيعه قوتها . . ولم تكن تستطيع أن تزيد عليها فجلست بعد أن نفدت أسبابها ، بجوار طفلها . . وإذا بقدم الطفل الصغير تضرب الأرض فينبع منها الماء !

هاجر أخذت بالأسباب ولم تعطها . . والوليد الذى لا حول

له ولا قوة تضرب قدمه الأرض برفق فينبع الماء . . لو أنها وجدت قافلة تمر أو عين ماء قريبة لما اكتملت هذه القضية .

لقد أراد الله بهذه القضية أن تكتمل فصولها ليلفتنا إلى هذه القضية الكونية وهى إنه إذا إستنفدت أسباب الأرض فلا تيأس . . فإن الله سبحانه لن يتركك . . فهو القائل وقوله الحق والصدق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٢ من سورة النمل)

إن هذا تثبيت للإنسان المؤمن . . ألا ييأس أبدا . . لأن له ركنا شديدا يأوى إليه . . إن الكافر ـ والعياذ بالله ـ إذا يئس ينتحر . . أما المؤمن إذا يئس فإنه يعلم أن له ربا لن يتركه . إن كل حاج يرجع وهذه القضية قد استقرت فى قلبه . . قضية هاجر وإبنها إسماعيل . . والأسباب وخالق الأسباب . . ذلك ليستقبل المؤمن كل أسباب الحياة بثبات وهمة وعدم يأس . .

إن الله يحب من عباده المتوكل الذى لا يترك يد الله الممدودة له بالأسباب فإن لم تعطك . . فسيعطيك رب الأسباب . .

الاختيار العام .. والتكليف الخاص

ويجب أن نلتفت إلى أنه فى الحج يخرج الإنسان نفسه من منطقة الإختيار العام إلى منطقة التكليف الخاص ، فلا يتجاوز مكانا من الأمكنة حددها له الشارع إلا وهو مُحْرم ، ومعنى الإحرام هو التخلى عن غرور إختياراتك إلى مرادات الله الإيمانية . .

هناك مثلا ميقات . . والميقات هو المنطقة التى تفصل بين الحْرَم والحِلّ . . فأنت خارج الميقات لا تحكمك قوانين خاصة ولا تقيد حركتك . . ولكنك داخل الميقات فأنت فى منطقة الحرم التى لا يمكن أن تدخلها إلا إذا كنت محرما . .

والإنسان إذا أراد أن يحج أدخل نفسه فى تكليف جديد . . والعجيب أن مناطق الميقات لم تحدد تحديدا هندسيا . . بحيث تكون أبعادها متساوية عن الكعبة ، إن قطر الميقات لسكان الحجاز ـ الذى فيه البيت ـ هو أطول أقطار المواقيت . فمن يدخل للحج من المدينة عليه أن يحرم من منطقة أبيار على . . والمسافة بين منطقة أبيار على وبين مكة ٤٥٠ كيلومترا . . بينما تجد ميقات رابغ ٢٠٤ كيلومترات . . والجحفة ١٨٧ كيلومترا والعراق ٩٤ كيلومترا ويلملم ٥٤ كيلومترا . .

إذن تحديد المواقيت ليس عملية هندسية ، لتعلم أن القضية

ليست قضية هندسية .. وانما هى مسألة خاضعة لطلاقة القدرة لإرادة الله .. فمن العسير على العقل أن يعرف الحكمة من التكليفات .. فمثلا نحن نتوضأ للصلاة .. بعض الناس يقول لك ان الوضوء نظافة أو طهارة .. نقول له ليس الأمر أمر نظافة ولا أمر طهارة .. لأنك إذا لم تجد الماء تتيمم بالتراب .. فلا تقل إن الوضوء نظافة .. لأن الله سبحانه وتعالى له حكم لا نعلمها ..

•

إننا إذا مررنا بالميقات انتقلنا من منطقة الإختيار إلى منطقة التقييد .. لا نلبس مخيطا .. لا نتعطر .. لا نحلق ذقوننا ولا رؤوسنا .. لا نجادل .. كل هذه الأوامر خاصة بمن تعدى الميقات .. فمن تعدى فقد قيد نفسه ..

•

الله سبحانه وتعالى وهو المكلف وضع سلوكا خاصا للحج .. وأنت الذى أدخلت نفسك فى هذه التكليفات ، وذلك تدريب لك على تقييد نفسك واختيارك لترضى الله من أجل هذا فإنه يهبك من المغفرة ومن الرضا الكثير .. خصوصا إذا أقبلت على مناسك الحج إقبالا إيمانيا .. بمعنى إنك لا تطلب أن تدرك الحكمة أولا من كل فعل كلفت به .. بل إفعل الفعل لأنه آت من الله .. فإذا فعلته فسيملأ قلبك الاطمئنان والراحة والرضا .. وهذا هو الفرق بين تكليف البشر للبشر وتكليف الحق للخلق ..

إذا كلفك مساو لك فأنت تسأل لماذا أفعل هذا الشىء ؟ .. ولكن بالنسبة لله .. فإنك تأخذ التكليف بالطاعة بمقدار ثقتك

فى علمه وحبه لك . . لا تسأل لماذا أفعل ؟ ولكن تسأل إذا كان الله هو الذى قال . . فالله لا يريد لنا إلا خيرا ولا يقضى إلا بالخير . . والخير كلما قصر فكرك البشرى عن إدراكه . . كان أضخم وأكبر . . لأن الخير فى هذه الحالات أكبر من أن تدركه أنت . .

الله جل جلاله حينما يخاطب خلقه لا يخاطبهم بالتكليف . . لا يقول لهم إفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا . . وإنما يقول يا أيها الناس آمنوا . . ومن آمن منهم يكلفه . . ولذلك تجد كل تكليف مسبوقا فى القرآن الكريم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » . . لأنك مادمت قد دخلت مع الله فى عقد إيمانى فقد آمنت بأن الله تبارك وتعالى له صفات الكمال المطلق . . فيه كمالات لا تتناهى . . فإذا تلقيت الأمر الإيمانى ولم تفهمه ونفذته . . فإنك ستجد له فى صدرك راحة وفى نفسك صفاء . . وتجد أن تجاوبك معه يشمل كيانك كله . . فخطاب المؤمنين بالأحكام وتنفيذها . . هو تسليم بأنك آمنت بإله حكيم . . لا يأمرك إلا بشىء يعود عليك بالنفع التام . .

وتشريع الله تستجيب له ملكات فى النفس نعرفها . . وملكات فى النفس لا نعرفها . . وهو سبحانه يشرع من واقع حال يراه . . فلا شىء يغيب عن علمه . . ولكنك أنت لا تكتمل عندك الصورة . . أبو بكر رضى الله عنه . . حينما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد معجزة الإسراء والمعراج ، وعندما اختلف الذين سمعوا بذهاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس . . وعروجه إلى السماء

السابعة . . وكان هؤلاء المستمعون بين مصدق ومكذب . . ماذا قال أبو بكر ؟ هل ناقش القضية ؟ هل عرضها على عقله ؟ وناقشها مثلما فعل الكفار الذين قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم « أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرا » . . إنهم حسبوها حسابا ماديا . . وهذه أمور غيبية لا تخضع لهذا الحساب . .

أبو بكر - رضىَ الله عنه - لم يأخذها بهذا الحساب . . بل قال : ان كان قد قال فقد صدق . . إنه رتب الصدق على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال . . وليس على قبول العقل للقضية . . قال أبو بكر : إذا كنت أصدقه بخبر السماء يأتيه أفلا أصدقه فى أنه انتقل من مكة إلى بيت المقدس وعاد فى ليلة ؟

وهذا هو الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما كان يرى الناس يقبلون الحجر الأسود . . وهو قضية تقف فيها العقول ماذا قال ؟ قال : والله انى أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع . . ولولا إنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . . هذا هو التسليم الكامل . . إنه لا يأخذ الأمور الشرعية بمقياس العقل ؛ . بل يأخذها بأمر المشرع وهو الله سبحانه وتعالى . .

ومن المناسك التى يقف العقل أمامها طويلا . عرفات . . وهو ما سوف نتناوله فى الفصل التالى . .

الفصل الثالث



إلى عـرفات الله

بعد أن تدخل مكة محرما تطوف وتسعى . . وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يتوجه الحجاج إما إلى منى حيث يبيتون ليلتهم ثم يتوجهون إلى عرفة فى اليوم التاسع من ذى الحجة . . وإما يتجهون مباشرة من مكة إلى عرفة . .

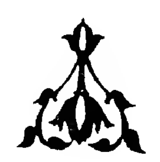
وعرفة ـ كما نعلم ـ فى موقع المناسك ليست فى داخل الحرم . . وإنما هى خارجه . . لذلك وقف العقل فيها وقفة طويلة . . والعقل الإيمانى كلما كشف الله له سرا أوقفه عند سر آخر . . ليظل الغيب غير خاضع لميكانيكية التشريع . . وإنما خاضع لطلاقة قدرة المشرع . .

إن الحج يمر بمراحل متعددة . . تبدأ باختيار الإيمان أولا . . وبالشهادة أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . بهذا الاختيار الإيمانى يدخل الإنسان فى نطاق التكليف . . الذى يشترك فيه كل المؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم . . من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . . وقلنا ان مناسك الحج تخرجنا من منطقة الاختيار العامة إلى منطقة تكليف خاص ، فلا يتجاوز الميقات عند حدود الحرم إلا محرما . . ولا يدخل الكعبة إلا ويؤدى النسك المطلوب منه طوافا وسعيا . . وعندما يأتى موعد وقفة عرفه يخرج من مكة إليها . .

إن الإنسان باعتناقه الإسلام يدخل نفسه فى تكليف ، فإذا

أراد أن يحج أدخل نفسه فى تكليف آخر خاص بالحج ، فإذا أراد أن يتم الحج ـ والحج عرفة ـ خرج من منطقة الحرم إلى منطقة خارج حدوده . .

وإذا أردنا أن نحصر الأماكن المحرمة بالنسبة للحاج نجدها أربعة : المسجد الحرام ، والبيت الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ـ المزدلفة ـ الذى يتوقف الحجاج عنده وهم فى طريق عودتهم من عرفات . . ليجمعوا الجمار التى سيرجمون بها إبليس ، ويصلون صلاة المغرب والعشاء فيها جمع تأخير . . قبل أن ينطلقوا إلى منى للمبيت إستعدادا لرمى الجمار ، وإلى مكة لأداء طواف الإفاضة . .



التجليات فى عرفة

وفى عرفات تتجلى فيوضات الله على عباده .. وهى فيوضات كثيرة لا تعد ولا تحصى .. فالتجلى بالمغفرة للناس جميعا يكون فى هذه المنطقة .. لماذا ؟ لنفهم أن الله إذا تجلى بالمغفرة فى منطقة غير الحرم .. فإن هذا التجلى له أسبابه .. لأنك فى عرفة قيدت اختيارك تقييدا تاما بحيث لا يصبح لك إختيار زمانا أو مكانا .. إن كل مَنْ فى عرفة فى هذا اليوم .. فى هذه الساحة الواسعة مقيد بأن يكون فى هذا المكان فى وقت معين .. فلابد أن تغرب عليه الشمس وهو موجود فى عرفات ..

إن الله يريد أن يلفتنا إلى انه كلما كان تقييده للإنسان أكثر .. كان الجزاء أكبر .. وكما قلنا فإن كل العبادات قيدت زمانا ـ كالصلاة والزكاة ـ ماعدا وقفة عرفات فقد قيدت زمانا ومكانا ..

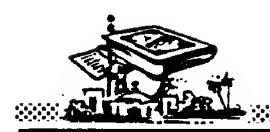
يقول الله تبارك وتعالى فيما ينبغى أن يكون عليه الحاج وهو يؤدى مناسك الحج :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾

(من الآية ١٩٧ من سورة البقرة)

لقد قيد الله شعائر الحج زمانا . . فلا تستطيع أن تحج فى أى يوم من أيام السنة . . وقيده مكانا بمكة وعرفات ومنى . . فبدون أن تذهب إلى مكة وعرفات ومنى لا يكون حجك كاملا . . وإن كانت هناك مناسك يصح فيها الفداء . . وهذا ما سنتحدث عنه فى فصول قادمة . .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يدربك على أن تكلف نفسك وتقيدها بأوامره . . لتكون جديرا بما يسبغه عليك من نعم فى هذا اليوم الأغر . . إنه يهبك من المغفرة والرضا الكثير . حتى إنه قيل فى الأثر أن الشيطان لم يوجد فى وقت من الأوقات ، ولا فى مكان من الأمكنة أَغْيَظُ منه من هذا الموقف . . لماذا ؟ لأن حظ الشيطان أن يكون الإنسان عاصيا . . فإبليس عصى ربه بعدم السجود لآدم . . ولذلك فهو يريد أن يكون الناس كلهم عصاة . . فإذا أحس إبليس بأن إنسانا تحدثه نفسه بمعصية أسرع يغويه ويحببها إلى نفسه حتى يقع فيها . . فيفرح إبليس لأن الناس عصوا مثلما عصى . . فتشاء قدرة الله سبحانه وتعالى أن يجعل يوم عرفة يوما يحبط فيه كل أعمال إبليس وينثر رحمته ورضوانه ومغفرته وتوبته على أهل عرفة جميعا . . جزاء لهم على ما قيدوا به حركة حياتهم فى ذات اليوم طبقا لإختيارات الله سبحانه وتعالى . .



يوم غفران الذنوب

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا اليوم :

(إن الله تجلى على أهل الموقف (أى عرفة) فغفر الله لأهل عرفة وغفر الله لأهل المشعر الحرام وتحمل الله عن الجميع تبعات ما عملوا نحو العباد) . . وذلك يقولون الحج المبرور يَجُبُّ ما قبله . . أى يغفر الذنوب التى حدثت قبل الحج . . فيعود الإنسان كما ولدته أمه . .

ويختلف العلماء حول هذا السؤال : هل الحج يغفر كل الذنوب ما يتعلق منها بالله ، وما يتعلق بالناس . . أم إنه يغفر الذنوب المتعلقة بالله . . أى التى بينك وبين ربك . . أما الذنوب التى بينك وبين العباد فمن شرائط محوها أن تعيد إليهم حقوقهم وتستسمح من أسأت إليه . .

ولكن هناك رأيا آخر يقول : إن الله حين يتجلى بواسع رحمته يوم عرفات على أهل عرفات يغفر كل الذنوب . . فما كان بينك وبين الله يغفره . . وما كان بينك وبين العباد يتحمله عنك . ولذلك فإنه من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(اللهم إغفر ذنوبى . مما كان لك منها فاغفرها لى . وما كان لغيرك فتحمله عنى) . .

ويخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله غفر لأهل عرفة وأهل المشعر الحرام . . وتَحَمَّل سَبحانه الذنوب فى حق العباد . .

ويجب أن نوضح أن عرفات تنطق بمنطوقين . . مرة نقول عرفات كما وردت فى القرآن الكريم . . ومرة ننطقها عرفة . . كما فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(الحج عرفة) . .

وعرفات أصبحت علما على المكان الفسيح الذى يجتمع فيه الحجيج فى التاسع من ذى الحجة . . ولا تظن أن عرفات جبل . . فإذا سمعت (جبل عرفات) كما يقول الناس . . فإفهم إنه الجبل المنسوب إلى منطقة عرفات وليس الجبل هو عرفات . .

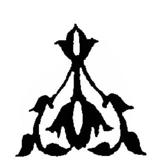
إن كثيرا من الناس يظنون إنه من تمام الحج أن يصعدوا إلى الجبل المسمى بجبل الرحمة . . والذى وقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع . . وأن لم يصعد فكأنه لم يحج !! نقول لهم لا ليس هذا صحيحا عرفة هى الوادى الفسيح الذى يطل عليه الجبل ، والجبل أخد أسمه لأنه مجاور لهذا الوادى . . فالجبل هو المنسوب لعرفات . . وليس الوادى هو المنسوب للجبل . .

وقد ورد فى كلمة عرفة أقوال كثيرة . . فهناك فرق بين أن

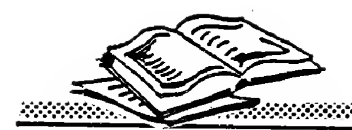
يكون الإسم وَصْفًا . . ثم يصير إسما وأن يكون علما . . ومن أول الأمر إذا كان الإسم علما فلا ضرورة أن يكون له معنى . . فقد تسمى إنسانا باسم سعيد وهو قمة الشقاء . . هذا إسم علم وهو لا يرتبط بمعنى . .

حقيقة أن بعض الناس يحبون أن يتفاءلوا بالأسماء . . منهم من يسمى إبنه سعد على أمل أن يكون سعيدا . . والعرب كانوا يتفاءلون بالأسماء . . كانوا يسمون فلانا صخر ليكون صخرا أمام أعدائه . . ويسمونه كلباً حتى لا يجرؤ عليه أحد .

وقد قيل للعرب أنتم تحسنون أسماء عبيدكم فتقولون سعيد وسعد وفضل ، وتسيئون أسماء أبنائكم وتقولون صخر وكلب . . قالوا نعم . . لأننا نسمى أبناءنا لأعدائنا . . ونسمى عبيدنا لنا !



سبب التسمية



كلمة عرفة أصبحت الآن علما .. ولكن لسبب تسميتها أكثر من قصة .. فقد قيل إن آدم وحواء حينما هبطا من الجنة إمتثالا لأمر الله هبط آدم فى مكان ، وحواء فى مكان آخر وذلك كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة طه)

لقد هبط كل منهما ـ كما قلنا ـ فى مكان منفصل .. وظل كلاهما يبحث عن الآخر .. حتى تلاقيا فى هذا المكان فسمى عرفة ..

والحديث عن آدم وحواء ولقائهما فى عرفة يقتضى إيضاحا .. فلك أن تتصور حال آدم .. وقد هبط فى عالم واسع غريب بمفرده ، ينظر حوله فلا يجد بشرا مثله .. فإذا رأى بشرا فسيقابله بإشتياق شديد ، ومن هنا فرق الله بين آدم وحواء .. ليبحث كل منهما عن الآخر بحث إشتياق ، فإذا إلتقيا تمسك كل منهما بالآخر لا يفلته .. وفى قول آخر أن آدم

قالت له الملائكة بعد أن نزل إلى الأرض فى هذا المكان : إعترف بذنبك وتب إلى ربك .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويكون المعنى أنه (عرف) ذنبه (وعرف) كيف يتوب .. ونعود لخليل الله إبراهيم عليه السلام .. وكيف عَرَّفَهُ الله مكان عرفة ..

لقد رأى إبراهيم عليه السلام فى الرؤيا إنه يذبح ابنه إسماعيل ، وهى مسألة شاقة على النفس لأنه ابنه الوحيد ولأنه سيذبحه بيديه .. وجلس إبراهيم فى هذا المكان يدير فكره ويتروى ، ولذلك سمى يوم عرفة بيوم (التروية) .. وعندما تأكد أن الرؤيا حق .. وعرف أنه لابد أن يذبح ابنه سمى المكان الذى عرف فيه حقيقة الرؤيا (عرفة) .

أو أن جبريل كان يعلم إبراهيم عليه السلام مناسك الحج فى هذا المكان .. ويقول له عرفت ؟ فيرد إبراهيم عرفت وقد يكون بمعنى إن الإنسان يعرف فيها ربه ، ويأتى إلى هذا المكان وكل واحد يعرف ذنبه ويستغفر الله فى ذل وخضوع ..

وعلى كل حال فإن اختلاف المعانى ، وإختلاف الملابسات

التى أدت إلى هذه التسمية بيوم عرفة أو يوم التروية . . لا تعارض بينها . . فمما لاشك فيه أن هذا اليوم الكريم هو اليوم الذى يباهى الله بعباده قائلا لهم :

(إنظروا إلى عبادى تركوا كل ما يملكونه وجاءونى شُعثا غُبْرا يطلبون مغفرتى ورحمتى . أشهدكم أننى قد غفرت لهم) . .

فى عرفات نلاحظ التساوى الكامل والوجود المكتمل لحجاج بيت الله الحرام جميعا لا يتخلف واحد منهم . . فى وقت واحد ينتهى بغروب شمس يوم عرفة . . وهذا هو المكان الوحيد الذى يجتمع فيه الناس على هذه الصورة . . وهذا التوقيت . .

نحن ندخل مكة على رحلات مختلفة وفى أوقات مختلفة . . كل حسب موعد رحلته . . فوج يدخل قبل الحج بأسبوعين ، وفوج يدخل قبل الحج بيوم واحد ، وفى رحلات العودة نعود متفرقين . . كل أيضا حسب موعد رحلته ، وحتى فى الإقامة فى مكة تتفاوت قدرة الناس . . فهذا يسكن فى شقة فاخرة . . وهذا يسكن فى حجرة . . وهذا يسكن فى جزء من حجرة وهذا يسكن فى فندق ، وذلك يفترش الأرض إلى آخر ما توفره امكانيات كل شخص له .

ولكن فى عرفات الموقف يختلف تماما . . المكان يجمع كل الأجناس . . وكل الألسنة وكل اللغات . . وكل المقامات وكل الأقدار ، والمساواة هى الطابع بينهم جميعا . . شعثا غبرا . . لا فرق بين غنى وفقير ، وعظيم ومستور الحال . . الجميع

هندامه غير منتظم . . ومظهره غير مرتب . متعب مرهق . فالكل متساو فى موقف الذلة والخضوع . . لا يوجد تعال من أحد على أحد ولا تفاضل بين إنسان وآخر .

انك لن تجد إنسانا فى عرفة يقول أنا فلان . . أو يحاول أن يباهى بمكانته الدنيوية . . بل الكل فى خضوع وذلة لله تبارك وتعالى . . يتسابق كل منهم ليعلن خضوعه لله وخشيته منه . . وكأن الخير لا يعم الناس إلا إذا إستووا جميعا فى الخضوع وفى الذلة لله . . ولم يحاول حتى واحد منهم أن يقول إنه أحسن من غيره . .

فى هذا اليوم الذى ننفض عن أنفسنا الإستعلاء وطغيان النفس يتجلى الله سبحانه وتعالى علينا بالمغفرة . . لأن الذى يجعل بيننا وبين الله حجاب هو اللجج الذى يحدث . . واللجج معناه أن نكون فى مجتمع واحد وكل واحد منا يرى نفسه أحسن من غيره ، يرى ميزاته ولا يرى عيوبه ! فى هذا اليوم العظيم نعرف أن ما تميزنا به ليس من عندنا . . ولكنه من عند خالقنا . . فيحدث (إستطراق) العبودية . . حينئذ يقول الحق سبحانه وتعالى :

(هم أهل جمع يستحقون مغفرتى ورحمتى) . .

إن اللجج والتعالى ومحاولة التفاضل والتفاخر على الناس هى التى ترفع رحمة الله ، وليس أدل على ذلك مما حدث عندما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبر صحابته عن ليلة

القدر فوجد إثنين يتشاحنان فَأُنْسيها ، وهكذا حُرِمَ الصحابة منها . . إذن فالجدل والخصومة والتشاجر تمنع هبات الخير عن المجتمع . . والجمع الذى يريد أن يستقبل فيوضات الله لابد أن يكون فى منتهى الصفاء معا . . حتى تنسجم كل الأجهزة مع بعضها البعض . . ويكون الإنسان صالحا للتلقى عن ربه . .

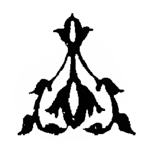
فى يوم عرفة يكثر الناس من الدعاء . . كل واحد فى هذا اليوم العظيم يقف داعيا . . وسواء أكان الجو حارا أم ممطرا . . فالكل واقفون ، والكل خاضعون ، والكل أذلاء لرب العالمين . .

فى هذا الموقف تتنزل الرحمة . . ويتجلى الله بالمغفرة على أهل عرفة . . حتى لا يكون عليهم ـ بفضل الله ـ ذنب لأن الحج يجبُّ ما قبله ـ كما قلنا ـ ومادمت قد وقفت لكل هذا ، ومادام الله قد تجلّى عليك بالمغفرة فلا يجب أن تعود بعد عرفات إلى ما يغضب الله سبحانه . . لأنك لا تضمن أنه سيبقيك فى الدنيا . . ويقسم لك الحج مرة أخرى فى الأعوام القادمة . . ومادمت لا تضمن هذا فاعمل لآخرتك وتمسك بالطريق المستقيم حتى تلقى الله فى أى وقت وأنت مغفور الذنب . .

إغتنم فرصة الحج فإنه يطهرك من الذنوب . . ولا تستمع لوسوسة الشيطان أبدا . . ويكفيك من رحمة الله أنك انتصرت عليه . . فإن كان قد تسلل إلى نفسك فى فترة ضعف ووقعت فى معصية . . فإن الله قد غفر لك بيوم إنكسار وخضوع وخشوع هو يوم عرفة . .

وأعلم أن الشيطان لن يتركك ، لأنه كلما ازددت إيمانا بذل معك الشيطان جهدا أكبر ليغريك بالمعصية . . سواء كان ذلك هو الشيطان الكبير الذى يشاغب ضمير الإنسان فى عقائده باعتبارها قمة الإيمان . . ولذلك فهى تحتاج إلى الشيطان الكبير . . الذى يتفرغ لها ليغرى الناس بالكفر والعياذ بالله . .

أما ذرية إبليس وهم شياطين الجن ومعهم شياطين الإنس فيتفرغون لما هو أدنى من إيمان القمة . . يتفرغون لإغراء الإنسان بالذنوب الأخرى مثل الزنا أو الرشوة أو السرقة أو غير ذلك . . هذا هو عمل ذرية إبليس . . أما إبليس نفسه ـ كما قلنا ـ فهو يدخل فى قمة العقيدة ويحاول أن يثير الشك فى نفسك . . فى وجود الله ووحدانيته وقدرته . . ويظل يوسوس للإنسان . .



الإفاضة من عرفات



يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾

(من الآية ١٩٨ من سورة البقرة)

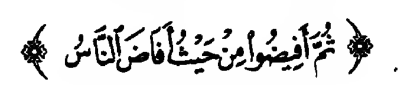
ما معنى أفاض ؟ حين تملأ كوبا عن آخره يفيض الزائد على جانبيه . . إذن فالفائض معناه شيء افترق عن الموجود بالزيادة .

قوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات » ذلك حكم مسبق بأن عرفات ستمتلىء عند الخروج منها إمتلاء تراه فائضا عن العدد المحدد لها فكأنه يفيض . وهذا حكم من الله فى الحج ، وأنت إذا شهدت هذا المشهد ورأيت الحجاج وهم يفيضون من عرفات . . فكأنك ترى إناء قد امتلأ وأخذ يفيض . . ولا تدرى من أين تأتى هذه الأعداد ولا إلى أين يذهبون . .

إن الذى ينظر إلى المسلمين وهم فى عرفات . . يجدهم كتلا بشرية بلا نهاية . . فإذا فاضوا فى مساء ذلك اليوم ، ونزلوا من عرفات . . فإنه يخيل إليك وأنت تنظر إليهم . . كأنهم سيل يفيض . . كتلا بشرية لا تستطيع أن تفرق بينها لأنها ترتدى نفس الملابس . . ويخيل إليك إنها تحوى نفس السمات ،

فكأنهم سيل متدفق .. هكذا تكون صورة الإفاضة من عرفات ..

إنك عندما تتأمل الناس المتوجهين إلى المزدلفة تتعجب أين كان كل هذا الجمع .. ترى الوديان تسيل بالناس .. تماما كالسيل العرم كتلة واحدة .. ثم تحدث إفاضة ثانية بعد الإفاضة من عرفات هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى :



(من الآية ١٩٩ من سورة البقرة)

ويجب على الحاج أن يكثر من الثناء على الله لتفضله عليه بتيسير هذه الرحلة المباركة .. وجاء بكم مؤمنين لبيت الله الحرام ثم تعودون .. وهذه مسألة تستحق الشكر والعرفان وأن يوالى الذكر .. لقوله تعالى : « واذكروه كما هداكم » .. لأن هدايته لكم علمتكم أقصر طريق إلى الخير .. وعلمتكم الطريق إلى المغفرة .. ويسرته لكم مالا وصحة وسعيا .. ولذلك فإن هذه الهداية من الله تستحق الذكر والشكر ..

ثم يقول الله تعالى : « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » .. أى من قبل الإسلام لأنهم فى الجاهلية كانوا يطوفون حول البيت عرايا .. وكل ما يفعلونه أنهم يصفقون ويصفرون .. ولكن الله تبارك وتعالى هداهم إلى الحج الصحيح الذى يغفر الذنوب ..

الحق جل جلاله يقول : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » كلمة (ثم) تدل على البعدية .. فهل البعدية هنا معناها إنها بعد الوقوف بعرفات ؟ أم بعد المبيت فى المزدلفة ؟

وقوله تعالى ثم « أفيضوا » حجة لمن يقول إنه لابد من المبيت فى المزدلفة .. وهذه الآية نزلت فى أئمة قريش الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم أهل الحرم .. ويحاولون الحصول على تميز عن باقى الناس .. ولذلك كانوا يفيضون هم أولا .. ثم بعد ذلك الناس بعدهم .. لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : (كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .. وهكذا ينسخ الله مسلك قريش فى محاولة التميز عن الناس .. بأنه ألغى أى تميز لقريش على غيرها من العرب ..

بعض المفسرين يقول : « إن معنى من حيث أفاض الناس » .. أى من حيث أفاض إبراهيم عليه السلام .. لأن مناسك الحج كلها علمها الله لإبراهيم عليه السلام الذى علمها للناس ..

ولا استغراب فى قوله تعالى (من حيث أفاض الناس) لأن إبراهيم عليه السلام وصفه الله بأنه أمة .. وكلمة الناس تطلق

على الإنسان الذى يجمع خصائص متعددة . . وقد وصف الله تبارك وتعالى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بصفة الناس . . بقوله تعالى :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ من سورة النساء)

والرجل الذى ذهب للمؤمنين ليحذرهم من أن المشركين يستعدون لقتالهم . . نزل فيه قول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾

(من الآية ١٧٣ من سورة آل عمران)

إذن فلفظ الناس يمكن أن يوصف بها فردٌ جَمَعَ خصال الخير . . ثم يقول الحق جل جلاله : « واستغفروا الله » . . دليل على أن الإنسان مهما حاول أن يرعى حقوق الله لابد أن تفلت منه أشياء . والاستغفار هنا مطلوب . .

وقوله تعالى : « إن الله غفور رحيم » أى أنكم ستجدون الله تبارك وتعالى غفورا رحيما فيستجيب لطلبكم المغفرة ويغفر لكم . . ويعيدكم من الحج مغفورى الذنب . .

فى هذه الليلة يجمع الحاج الحصى الذى سيرجم به إبليس من المزدلفة ويصلى المغرب والعشاء جمع تأخير . . ثم يتجه بعد ذلك إلى منى ليرجم الشيطان . . وهذه لها قصة نفصلها فى الفصل التالى . .

الفصل الرابع



رجم الشيطان

بوصولنا إلى منى نكون قد أدينا نصف فريضة الحج .. ذلك أن للحج ركنين أساسيين لا يتم إلا بهما ولا يجوز فيهما فدية ولا أى نوع من أنواع القضاء ..

الركن الأول : هو الوقوف بعرفات .
والركن الثانى : هو طواف الإفاضة . هذان هما الركنان الأساسيان فى الحج ، أما ماعدا ذلك فيمكن فيه الفداء والذبح ..

حين نتجه من المشعر الحرام إلى منى لنرجم الشيطان ، يجب أن ننتبه لأمر مهم هو قصة إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما السلام . قصة الإبتلاء المبين الذى ابتلى به الله سبحانه إبراهيم بأن رأى فى المنام إن الله يأمره بأن يذبح إبنه إسماعيل . وكان هذا ابتلاء عظيما من الله سبحانه وتعالى لماذا ؟ لأن إبراهيم شيخ كبير ، وابنه إسماعيل فى عنفوان الشباب . وفى هذه السن يحس الأب إن ابنه هو امتداد لحياته ويصبح فخورا به . كما أنه يعينه على مصاعب الحياة وبالاضافة إلى أن إبراهيم شيخ كبير .. إمراته سارة عاقر ..

معنى هذا امتناع الأسباب أن تعطى لإبراهيم إبنا آخر ، وإن كان خالق الأسباب يستطيع أن يعطى ..

لقد أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم بذبح إسماعيل . ولو انه أمر بقتله لكان أهون .. لأنه من الممكن أن يكلف بعض

الناس بقتل إسماعيل بعيدا عن أبيه ، ومن الممكن أيضا أن يأخذ إبراهيم إبنه إسماعيل على قمة جبل ثم يدفعه فلا يرى شيئا . .

ولكن الأمر هنا كان بذبح إسماعيل . . أى انه سيأخذ السكين ويأخذ ولده وهو ينظر إليه . ثم يذبحه بيده ويسيل دمه حتى يفارق الحياة . عملية أليمة للنفس . . حتى ولو كان عنده من الأولاد الكثير فما بالك بابن واحد فى مقتبل العمر وأب شيخ كبير وأم عاقر !! إنه عمل لا يقوم به إلا من يحب الله حبا يفوق الدنيا وما فيها . . حبا أعلى من كل حب . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين) . .

هذا هو اختبار الإيمان الذى تعرض له إبراهيم فى هذه البقعة بالذات . الإختبار الذى يؤكد أن الله سبحانه وتعالى أحب إليه مما سواه . . ليس قولا ، ولكنه عمل ، ليس بمجرد الكلام .

أخذ إبراهيم ولده ليذبحه تنفيذا لأوامر الله . . ولم يرد إبراهيم أن يأخذ إسماعيل على غرة . بمعنى انه يأخذه معه إلى الجبل ويفاجئه بالسكين وبالذبح . . بل أراد أن يخبره أولا . .

ويحكى القرآن هذه القصة فيقول فى محكم التنزيل :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ من سورة الصافات)

وهكذا أراد إبراهيم عليه السلام أن يعلم إبنه اسماعيل بما سيحدث . . وإسماعيل نبى فماذا قال عن إبتلاء الله . . قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ من سورة الصافات)

وهكذا كان حب إسماعيل لله أكثر من حبه لحياته ولنفسه . وانطلق الأب الشيخ المسن والإبن الشاب ومعهما السكين . . ولكن هل يترك الشيطان طاعة لله تتم دون أن يفسدها ؟ طبعا لا . . إن مهمته هى إفساد طاعة الله فى الأرض . .

جاء الشيطان الكبير لخليل الله إبراهيم ليفسد عليه إيمان القمة ، جاء لإبراهيم ليقول له ما الذى تنوى أن تفعله بابنك ؟ وما معنى أن تذبحه وأنت شيخ كبير محتاج إليه ؟ وكيف تصدق هذه الرؤيا ؟ إنها كاذبة . .

ويحكى أن أحد العارفين تمثل له الشيطان فى صورة صبى يخدمه مدة طويلة . . وخرج الشيخ لصلاة الفجر ذات مرة . . وكانت الدنيا ممطرة والأرض موحلة ، والشيطان المتمثل فى

صورة صبى يحمل المصباح للشيخ . ويقوم ويقع فى الوحل والطين ، فقال الناس هذا الرجل الكبير كيف يعذب هذا الولد الصغير ويخرجه معه فى هذا الليل المطير الموحل . . والعارف بالله يقول لهم بكل بساطة دعوه يَشْقَ فإن الذى كتب عليه الشقاء هو الله . فكأن الله قذف فى نفس الشيخ أن هذا الصبى شيطان . .

إذن الشيطان لا ييأس من أى جزئية يدخل منها . . بل يحاول أن يدفع الإنسان إلى المعصية بأى وسيلة . . ولذلك فإن الشيطان لم يترك وسيلة مع إبراهيم وإسماعيل وهاجر إلا اتبعها . . عله يفسد طاعة من أعلى الطاعات وأكثرها ثوابا عند الله طاعة الإيمان الْقِمِّى . .

وبمجرد أن غادر إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام البيت . . بدأ الشيطان مهمته وهو يقول لنفسه هذه محنة . . هذا إبتلاء عظيم . . فإن لم أستطع أن أفتن هؤلاء فى هذه المحنة . . فلن أستطيع أن أفتنهم أبدا . .

وجاء لهاجر وقال لها : أتعرفين إلى أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ فقالت ذهب به لبعض حاجته ، فقال لها الشيطان : إنه لم يذهب به لحاجته إنما ذهب به ليذبحه . . فقالت هاجر ولماذا يذبحه ؟ فرد عليها الشيطان : زعم أن ربه أمره بذلك . . فقالت : أغرب عن وجهى . مادام الله قد أمر فلابد أن يطاع . .

إنصرف الشيطان عنها مدحورا وأسرع ليلحق بإبراهيم وإبنه عليهما السلام . . وبدأ إبراهيم . . لقد حاول أن يمنعه من تنفيذ أمر الله . . فقال له : ما الذى أعلمك ان هذه الرؤيا من الله ؟ ربما كانت أضغاث أحلام ، وماذا يستفيد الله من ذبح إبنك ؟ لا تطع الأمر وإلا فسوف تندم طول حياتك ، إذا قمت بذبحه فلن يفارقك وجه ابنك وهو يموت . . سيظل وجهه دائما أمامك يعذبك طول حياتك . . وأنت شيخ كبير فى الرابعة والثمانين لن ترزق ولدا بعده . . وظل يحاول مع إبراهيم . . ولكن إبراهيم لم يستمع إليه . .

ولما يئس من إبراهيم ذهب إلى إسماعيل وقال له : إن أباك سيذبحك ، فقال إسماعيل إذا كان الله قد أمره أن يفعل ذلك فليفعل ما أراد الله . . حينئذ حاول إبليس أن يمنع إبراهيم وإسماعيل من الذهاب إلى مكان الذبح . . وقد سمى فيما بعد (بجبل الكبش) ، لأنه الجبل الذى نزل عليه الفداء . .

حاول الشيطان أن يمنع إبراهيم عند الجمرة الكبرى فى منى من الاستمرار فى السير لتنفيذ أمر الله فأمسك إبراهيم بالجمرات السبع ورجم إبليس ، ولكن ابليس وذريته لم ييأسوا وتابعوا ابراهيم واسماعيل علهم يستطيعون أن يمنعوهما من تنفيذ أمر الله . . فرجمهم إبراهيم وإسماعيل لينصرفوا ويبتعدوا عنهما . .

هذه هى قصة الرجم . . رجم الشيطان . ونحن مطالبون بأن نرجم الشيطان كما رجمه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

مغزى رجم الشيطان



لقد أراد الله سبحانه وتعالى بقصة إبراهيم وإسماعيل مع إبليس أن يعلمنا بعد أن وقفنا بعرفات وغفر لنا ذنوبنا . . لكى نحافظ على هذه التوبة ، لابد أن نرجم الشيطان فى أنفسنا رجما معنويا فلا نجعل له فيها مدخلا ، إذا حاول أن يوسوس لنا بمعصية فلا نستمع إليه . . وإنما نرجمه بعصياننا لنزغاته حتى يبتعد عنا ويتركنا ولا يكون له علينا سلطان .

أنت إذا أصغيت إلى الشيطان مجرد إصغاء . . فهذه أول خطوة من خطوات المعصية . . إنه يريد أن يستميلك لتستمع إليه . . فلا تترك له هذه الفرصة . . ولا تستمع لإغوائه . . بل ارجمه على الفور بالعصيان . .

بعض الناس يتساءل : نحن نرجم حجرا . . فما علاقة الشيطان بهذا الحجر؟ وهل الشيطان موجود فيه؟

بعض العلماء يقولون إن الشياطين تحبس فى هذه الأحجار فى أيام منى . ونحن نقول لهم سواء أكان هذا صحيحا أم غير صحيح . . فإنه اختبار كما قلنا للإيمان فى القلب . . فعلّة الأسباب الإيمانية ليست فى أن نفهمها . . أو نعرف الحكمة منها . . ولكن علة الأشياء فى أن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بها . . إننا نقبل حجرا ونرجم حجرا . . والسبب فى هذا أن

الله تبارك وتعالى أمرنا والواجب أن نطيع الآمر دون أن نحاول أن نفلسف الأمور بعقولنا الضيقة والعاجزة . . ذلك إنه مادام الله سبحانه وتعالى قد أمر . . فلابد أن هناك حكمة عرفناها أو لم نعرفها . . ذلك أن هناك أسرارا كثيرة فى الكون لا نعلم عنه شيئا . .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن نعرف إنه مادمنا قد أتممنا الحج ـ والحج مادام من حلال وقصد به وجه الله فهو مقبول ومبرور . فإن الشيطان لن يتركنا بمجرد غفران الذنب ، إنه يحاول أن يدفعنا فى ذنوب ومعاص جديدة . . وبمجرد عودتنا من الحج هو سيعمل على أن يفسد علينا الطاعة ويضع فى نفوسن المعصية . .

والله جل جلاله يريدنا أن نلتفت إلى أننا فى الحج إنتصرن على الشيطان . . بأن امتنعنا عن كل ما نهى الله عنه . . ليس امتناعا يشمل ما حرم الله فى الأوقات العادية . . ولكن التحريم إمتد إلى بعض ما كان مباحا . . فكأن التحريم زاد ورغم ذلك قدرنا عليه . . وقضينا مناسك الحج فى ذكر الله والإنشغال بالعبادة والدعاء . . بمعنى أننا لسنا قادرين فقط على طاعة المنهج . . بل اننا قادرون على طاعات أكبر وأكثر . . فإذ تذكرنا هذه الحكمة إلتزمنا تقوى الله بعد أداء مناسك الحج . . وعرفنا أننا قادرون على الطاعة فالتزمناها . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ

أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾

(سورة البقرة)

إن الله سبحانه وتعالى يريدنا لكى لا نضل ولا ننحرف ، أن نذكره دائما بعد أداء فريضة الحج كما نذكر آباءنا على التباعد . . أى وهم بعيدون عنا . . أن نذكر الله سبحانه وتعالى . . لأن هذا هو التلاقى الذى تنعدم فيه كل الأهواء وكل الإنتماءات . .

إن الحق تبارك وتعالى يريد أن يقرب من خلقه ما يجعل حركاتهم تتساند ولا تتعاند . . فيجب أن يكون ذكرنا لله أشد من ذكرنا لآبائنا . . لأن الآباء مهما طال بهم العمر إنتهوا وماتوا . . والله أزلى لا يموت . . وإذا كان الآباء هم السبب المباشر فى قدومنا إلى الدنيا . . فإن الله سبحانه وتعالى هو الذى أوجدنا من عَدم ، وخلقنا من عَدم . . فالخلق يُردُّ إلى الخالق . ونحن مجرد أسباب . . فلابد أن نذكر الأصل فى الإيجاد . . وهو الذى أوجد من عدم أكثر مما نذكر الأسباب . .

بعد النجاح الذى حققه إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام وصمودهم أمام البلاء . . حدث الفداء . . كما يروى القرآن الكريم :

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ

﴿ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إذن ساعة أمر الله إبراهيم أن يذبح إبنه لم يكن عنده إلا إسماعيل وبُشر بإسحق بعد ذلك . . ورغم شدة الإبتلاء فإن إبراهيم وإسماعيل سلما الأمر لله واستجابا له . . ولذلك وصف الله إبراهيم بأنه حليم أواب . .

إن هذا يلفتنا إلى أننا لو استقبلنا كل حكم من الله بالرضا نأخذ ثواب الطاعة لأمر الله . . وفى نفس الوقت فإن الله تبارك وتعالى يرفع عنا القضاء . . وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . . والله جل جلاله يقول :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى بدأ التنفيذ فعلا . . وأمسك إبراهيم بالسكين ليذبح إبنه . . ولكن السكين لم تذبح . . لأن السكين لا تذبح بذاتها ولكن بأمر الله لها . . فكما قال الله تبارك وتعالى للنار التى ألقوا فيها إبراهيم عليه السلام . .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

فإنها لم تحرقه . . كذلك أمر السكين ألا تذبح فلم

تذبح . . وفى ساعة الوفاء بالأمر نادى الله سبحانه إبراهيم كما جاء فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾

(الآية ١٠٤ وبعض الآية ١٠٥ من سورة الصافات)

إن الله سبحانه وتعالى يريد من خلقه أن يؤمنوا بحكمة أوامره . . وأن يقبلوا على تنفيذها برضا . فإذا أقبلت على تنفيذ الأمر بالرضا يرفع الله قضاءه . . ولذلك أحفظ هذه الآية جيدا وتذكرها وأنت فى منى . . حتى تعرف إنه فى كل أحداث الحياة التى تصيب الإنسان لا يرفع الله قضاءه إلا إذا رضى بالقضاء من إبتلى به . . فإذا رأيت قضاء قد طال على مقضى عليه كمرض لا يشفى رغم كل وسائل العلاج ، أو إبتلاء فى الأولاد أو المال ولم يرفع رغم طول الزمن . . فأعلم إن الْمُبْتَلَى غير راض بقضاء الله ومتبرم به . . وساعة يرضى ويسلم بحكمة القضاء . . يرفع عنه . .

وإبراهيم صدق الرؤيا ، ومادام قد صدقها برضا نفس وقبول وتسليم بحكمة الله سبحانه فيما يأمر به . . رفع القضاء عنه وقيل له لا تقتل إبنك . . وأتى الفداء بكبش نزل من السماء فكأن الله تبارك وتعالى هو الذى فدى إسماعيل بهذا الكبش . . ليس هذا فقط ، ولكن الله سبحانه وتعالى بدلا من أن يميت الإبن الوحيد لإبراهيم وهو إسماعيل . . بشره بغلام ثان هو إسحق !

إذن فالذى يقبل من الخلق على أوامر الحق الغيبية . . التى لا يعلم لها حكمة ثقة منه فى حكمة الله سبحانه ، يكون جزاؤه كبيرا . . وكلما كان الحكم أبعد عن تصور العقل . . كان الإيمان أقوى فى الصدور . . والذين يمتنعون من الخلق عن أشياء حرمها الخالق ، لأنهم لا يعرفون الحكمة . . فإذا ظهرت الحكمة وعرف الضرر الذى يصيب الإنسان منها إمتنعوا عنها . . هؤلاء لا يمتنعون عن إيمان بأمر الله . . ولكن عن إيمان بالطب أو العلوم أو غير ذلك . .

ولابد أن نعرف أن هناك فرقا بين تكليف الخلق للخلق ، وتكليف الخالق لخلقه . تكليف الخلق للخلق لابد أن نعرف حكمته لننفذه . . ولكن تكليف الخالق للخلق ننفذه إيمانا بحكمة الله سبحانه وتعالى فيما شرع . . وكل شيء جاء من المشرع وتقف عقولنا عن إدراكه فنحن ننفذه إيمانا بحكمة الله .

الإمام على رضى الله عنه . . ساعة تكلم عن المسح على الخفين . . قال : لو أن المسألة تخضع للعقل . . لكان المسح على باطن القدم أولى من المسح على ظاهره . . لأن باطن القدم هو الذى يتعرض للإتساخ . . ولكن العملية هى إعداد النفس للإقبال على إله يريدك أن تقبل عليه بالطاعة ، ولا تستبيح لنفسك أن تدخل على الله سبحانه وتعالى بأى نوع من الجدل . فالله سبحانه لا يُسْأَلُ لا عما يفعل ، ولا عما يأمر .

إنك حينما تأتى لترجم الشيطان فأنت فى الواقع تريد أن تسد عليه المداخل التى يدخل منها إلى نفسك . . سواء فى قمة عقيدتك برجم الشيطان الأكبر ، أو فى فروع عقيدتك برجم الشياطين الصغار . . وتقوم برجم الشيطان سبع مرات . كل هذا أمر حسى مناسب لماديتك . . ولكن هناك حكمة للأمر يجب ألا تخفى عليك هى أن الله سبحانه وتعالى يريد منا بعد أن أدينا مناسك الحج أن نتقبل قضاءه كله بالرضا مهما بدا لنا . . وأن نعلم أن ما قضى الله به هو الخير . .





والحوار بين العقل والطاعة دائم ومستمر فى الحج . . عمليات قد تقف فيها عقول الناس وهى تؤدى مناسكه من طواف وسعى ، وتقبيل حجر ، ورجم آخر ! وغير ذلك . . نقول هذه المسائل تتجاوز حدود العقل . . لأن المسألة هى إنضباط فى طاعة الله . . وتعويد للنفس البشرية على أن تخضع للأمر الأعلى . فالله سبحانه لم يكلف شططا ، بل كلف بحكمة بالغة . .

أنت حين ترجم الشيطان لابد أن تعرف أنه لا يترك قضية إيمانية إلا حاول إفسادها ، وقد لاحق الشيطان سيدنا إبراهيم عليه السلام . . وكلما ردده إبراهيم كان يعاوده مرة ثانية . . ونحن بالرجم نمتثل لأمر الله أولا ونحيى سنة أبينا إبراهيم عليه السلام الذى سمانا مسلمين من قبل وفاء لمن وفّ . . كما يقول الله تبارك وتعالى عنه فى كتابه الكريم :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

إننا حين نرجم إبليس فى الحج يجب أن يكون عزمنا هو ألا نطيعه بعد العودة وأن يكون شعورنا أننا تغلبنا عليه ، ويجب أن تستمر هذه الغلبة بعد الحج لأنه رغم دسه وسوسته

ليجعلنا لا نؤمن بالله آمنا . . ورغم محاولته لأن يجعلنا نشرك بالله لم نشرك . ثم آتينا إلى الحج فأدينا المناسك وإزددنا فى الطاعة . .

إن الرجم هنا رمز لإنتصارنا على الشيطان ، وهو يوم لعنة وخسران مبين للشياطين . . والشيطان ملعون من الله ومن الملائكة ومن المؤمنين ، لعنة الله غيب عنا ولكنها موجودة ومستمرة . . ولعنة الملائكة غيب عنا ولكنها موجودة ومستمرة . أما نحن فإننا نعلن لعنتنا للشيطان بطريقة مادية ، وهى الرجم فى منى ، فى هذا اليوم يُرى الشيطان فى أحقر وأذل حالاته . .

إنه يوم الثأر والقصاص من الشيطان الذى وسوس لك ، إنه يوم الإنتصار على أعدى أعدائك . . ويجب أن يظل عدوك اللدود . . وفى نفس الوقت أخذت الدرس فيما بقى من حياتك . . لا تدعه ولا تعطه الفرصة لكى ينتصر عليك مرة أخرى . . تقبل أوامر الله ونواهيه بعشق وارض بقضاء الله . . فإن فعلت أغلقت جميع منافذ الشيطان . . فلا يكون له عليك أى سلطان . . فليس أى إبتلاء من الله لك يعنى إنه غاضب عليك لأنك لا تدرى ماذا أخفى الله فى قضائه . . فلعله إبتلاك به لأنه يريد أن تزداد ثوابا على الطاعة ، وتزداد أجرا على عدم الوقوع فى المعصية أو ليرفع درجاتك والله سبحانه يعلم ـ وهو العليم ـ صدق توجهك ورضائك فى كل ما تأتى به المقادير ليجزيك عن الصدق والرضا أحسن الجزاء . .

وبعد أن ترمى جمرة العقبة الأولى (أو جمرة إبليس الكبير) تتحلل الإحلال الأصغر وعليك أن تقصد إلى مكة لتطوف طواف الإفاضة وهو آخر ركن فى الحج ، وبعده تحلل الإحلال الأكبر الذى يتيح لك كل ما كان محرما عليك . وإذا كنت قد أديت السعى بين الصفا والمروة فى طواف الحج فليس عليك سعى فى طواف الإفاضة ، أما إذا كنت لم تؤده فأسع بعد طواف الإفاضة . .

وهناك طواف تطوع ، وسعى تطوع لكل من أراد أن يزداد أجرا وثوابا . فليس أحب إلى الله من فعل مثل ما فرضه علينا من صلاة وصوم وصدقة أو نسك ، لأن هذا الفعل دليل على أننا لا نؤدى ما فرضه الله علينا فحسب ، وإنما نزيد عليه بالتطوع تعبيرا وحبا عمن عبوديتنا لله جل جلاله . .



الفصل الخامس



إجتهادات العلماء

كثير من الناس يحدثوننى عن اختلاف الأئمة فى الاجتهادات التى لم يرد فيها نص محكم من الله بالنسبة لمناسك الحج .. والإيمان يتطلب منا أن نجمع على النص المُحكَم .. أما النص غير المحكم الذى تركه الله للاجتهاد فعلينا أن نحترم رأى المجتهد فيه .. فلا يرى إمام من الأئمة ان ما ذهب إليه فى الاجتهاد هو وحده الحق ، واجتهاد غيره باطل ، بل يجب أن نقول كما قال المجتهدون من الأئمة : « ما وصلت إليه صواب يحتمل الخطأ ، وما وصل إليه غيرى خطأ يحتمل الصواب » ..

إن ذلك ثبت على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المشرع المفوض من الله أن يشرع ما يبين للناس كل أحكام الدين .. لأن القرآن وهو ـ الكتاب المعجزة ـ إنما جاء من الأحكام بالأصول . ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من الله أن يأتى بالتفصيل .. ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا أن نحترم فى الاجتهاد الآراء المخالفة ولا نخطئها بل نقبلها .. مثال ذلك ما حدث بعد غزوة الأحزاب .. فبعد أن انسحب الكفار وفروا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يصلِّين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة) ..

بعض المسلمين الذين سمعوا هذا النداء إنطلقوا إلى بنى قريظة عازما على صلاة العصر بها كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وبعضهم الآخر رأى الشمس تميل إلى المغيب وخاف أن تفوته صلاة العصر فصلى .. ثم أكمل مسيرته إلى بنى قريظة ..

إحتكم الطرفان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وأقر الرسول كلا الطرفين .. من صلى العصر قبل أن تغيب الشمس حتى لا يفوته وقت الفرض .. ذلك الذى نظر إلى ظرف الزمان ، كما أقر من لم يصل العصر إلا فى بنى قريظة ، ذلك الذى نظر إلى ظرف المكان . فالإثنان على صواب ..

نقول هذا لنبرهن على أن الخلافات التى بين المذاهب الأربعة فى الحج وفى غيره .. يجب أن تكون مقبولة على أساس ما أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة للصلاة فى بنى قريظة ..

الإمام الشافعى رضى الله عنه قبل أن يأتى إلى مصر كان له مذهب .. ولما جاء مصر ووجد ما دونه عبدالله بن عمرو ابن العاص وفيه أحاديث لم يروها أبو هريرة ، لأن عبدالله بن عمرو كان يتميز بأنه يكتب ، وأبو هريرة لم يكن يعرف الكتابة بل كان راويا .. عندما جاء الشافعى إلى مصر ووجد ما تركه عبدالله وفيه أحاديث لم يعلمها من قبل .. بدأ يغير بعض الأحكام فى كتابه (الجديد) الذى انتهى إليه وغير أحكاما كان قد أثبتها من قبل ..

كذلك كل ما اختلف الأئمة بشأنه فيما يتعلق بالمبيت فى منى ، أو الوقوف بالمزدلفة ، أو النحر ، وأين يتم ، وغير ذلك . . وكلها قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم عندما سئل عنها :

(إفعل ولا حرج) . .

إن الذين يتمسكون بشيء ما ، ينظرون إلى ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع . . ونحن نقول إن هذا شيء طبيعى . . لأن اتباع ما فعله رسول الله عليه الصلاة والسلام هو اتباع لصحيح السنة . . ولكن لابد أن نفرق بين سُنّية الدليل وسنية الحكم . . فأنت تصلى المغرب مثلا ثلاث ركعات . . مع إنه لم يأت نص فى كتاب الله يقول إن المغرب ثلاث ركعات ، أيضا لم يأت نص بأن الصبح ركعتان . . أو أن كلا من الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات . . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهو المشرع الثانى بحكم القرآن ـ علمنا ذلك . .

نأتى إلى كلمة سنة ويدور حولها بين العلماء خلاف ، بعض الفقهاء يقول هناك فرض وواجب وسنة . . ويقول إن معنى السنة أنك إن فعلتها تثاب ، وإن لم تفعلها لا تعاقب ، وتسمى سنية الحكم . . كالركعتين اللتين تصليهما قبل صلاة الصبح إن فعلتها تثاب وإن لم تفعلها لا تعاقب . . أما بالنسبة لعدد ركعات المغرب الثلاث فإنك تصليها بسنة الدليل وليس بسنة الحكم . .

الأخذ بالأحوط



وفى فريضة الحج بعض الناس فعلوا أشياء قبل أشياء قدموا أو أخروا وعندما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

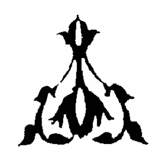
(إفعل ولا حرج) . .

لأن هذه الأمور ليست سنية حكم وليست سنية دليل . . فالحج يجب أن يتسع لكل مظاهر الخلاف ، ولكن يجب على من يؤدى حج الفريضة أى الحج الأول له ألّا يتساهل ، وأن يأخذ بالأحوط . . أما حج التطوع ـ وهو ما بعد أداء الفريضة ـ فالتيسير فيه أوسع . . والاحتياط فى أمور العبادات واجب لتكون أرجى للقبول عند الله ، فإذا كنت تصلى ولا تعرف هل صليت ركعتين أو ثلاثا نقول لك إعتبر إنك صليت ركعتين حتى تأخذ بالأحوط . .

وبالنسبة للطواف حول الكعبة مثلا ، وحول الحطيم وهو القوس التى يتم الطواف من خارجها . . فلا تقل سأطوف حول بناء الكعبة فقط . . لأن أصل بناء الكعبة كان ينتهى عند هذه القوس . . ولما جاء العرب ليعيدوا بناءها . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخامسة والعشرين من عمره أخذوا عهدا على أنفسهم ألا يبنوها إلا من مال موثوق به أنه حلال . . فجمعوا المال الموثوق بأنه حلال فوجدوه لا يكفى

إلا المساحة الحالية لبناء الكعبة . . فقالوا نبنى على قدر هذا المال الحلال والباقى نعمل له حدودا فقط . . فهذه الحدود التى تشبه القوس هى من الكعبة . .

إنك عندما تطوف فإنك لا تطوف حول البناء العالى للكعبة فقط وإنما تطوف بالزيادة خارج القوس . . فإن طفت من الدائرة القريبة فإن طوافك صحيح . . وإن طفت من الدائرة الواسعة فإن طوافك صحيح . . ولكنك إن طفت من الدائرة القريبة تكون قد تركت جزءا من الكعبة . . لأنه من المقطوع به أن هذا الجزء المحاط بالقوس ، وليس فيه بناء ، من الكعبة . . ولا تجوز صلاة الفرض فيه لأن صلاة الفرض لا تجوز داخل الكعبة ، ولكن من خارجها ، وأنت متجه إليها ، ولذلك فمن الأحوط ومن الأحسن أن تطوف حول الكعبة كلها ، وأن تتجه فى صلاتك إلى الكعبة كلها . . وكل فريضة تحتاط لها بالزيادة ، وليس بالنقص . .





ذبح الهدى

أما بالنسبة للذبح فالأمر ليس فيه نص محكم ، ولذلك فأنت تأخذ بالرأى الميسر . . لأن الذى قال : إن الذبح لا يجوز إلا فى منى ، نظر إلى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى قال : إن الذبح يجوز فى مكة نظر إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ ﴾

(من الآية ٩٥ من سورة المائدة)

كما أن هناك رأيا أن مكة كلها منحر أى يجوز الذبح فى أى مكان فيها . . وكل هذا لا يمثل خلافا ، بل الخلاف يجب أن يكون فى الإتجاه ، وليس فى المتوجَّه إليه . . كلنا نريد أن نتوجه إلى الحق . . أنت رأيت الحق هنا ، وأنا رأيت الحق هناك . . ولا يوجد شىء يقودنى ويقودك إلى حكم مقطوع بحقيقته إلا بالاجتهاد . . وليس هذا نقصا فى التشريع ، بل هو نوع من التيسير على الناس فى الأحكام . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما خلقنى مقهورا فى أشياء جرى علىَّ فيها القضاء . . ومختارا فى أشياء أختار فيها بين البدائل . . كذلك جعل أحكام المنهج أحكاما جبرية ليس لى فيها تصرف . . وأحكاما أخرى تركها للإجتهاد والرأى . . وإلا كيف نفسر قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ من سورة النساء)

والإستنباط هو أن تحاول إستنباط الحكم . . ومادمت تحاول أن تستنبطه فهو غير واضح لك . . والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز حينما أراد أن يهيئنا للصلاة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾

(من الآية ٦ من سورة المائدة)

إن المطلوب منا قبل أن ندخل فى الصلاة هو أربعة أشياء : غسل الوجه واليدين حتى المرفقين وغسل الرأس والقدمين . . والسؤال هو : هل القدمان داخلتان فى المسح أم فى الغسل ؟

نقول إن الآية الكريمة تقول : « إمسحوا برءوسكم وأرجلكم » . . الأرجل منصوبة . . فإذن هى معطوفة على المغسول وهما الوجه واليدان لا على الممسوح . . وهو الرأس . نقول إن الترتيب هنا شرط . . أى أن تقوم بفعل هذه الأشياء بترتيب حدوثها . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى فصل بين مغسولين بممسوح . .

التحلل الأكبر والتحلل الأصغر

ويجب أن نعرف أن هناك تحللا أكبر ، وتحللا أصغر . . فالتحلل الأصغر يحل لك كل شيء كان ممنوعا فى الإحرام . . إلا النساء ، فلا تحل لك المرأة إلا بعد طواف الإفاضة . . وطواف الإفاضة ركن يجب أن نحتاط فيه بأن نؤديه الأداء الكامل : سبعة أشواط ، ولا نزيد عنها ، لأنه ركن من أركان الحج . .

فى طواف الإفاضة تختلف الصورة لأن بعضهم تحلل من إحرامه بعد أن قاموا برجم إبليس فى جمرة العقبة ولبس ملابسه . . وبعضهم لم يتحلل وظل بملابس الإحرام . كما نجد البعض يغطى كتفا ويكشف الكتف الأخرى . .

والأصل أننا نفعل ذلك فى الأشواط الثلاثة الأولى . مثلما نهرول فى المسعى فى الأشواط الثلاثة الأولى.وفى هذه الأشواط لابد أن تسرع . . هذه عملية تسمى إستصحابا ، أى تقليدا لما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته . .

أما سبب هذه الهرولة فى الأشواط الثلاثة الأولى فقد حدثت لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعكة من تغير الجو فقال كفار قريش : حمى يثرب نهكت المسلمين وأضعفتهم . . فلما بلغ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يثبت

كذب كفار قريش ، فأمر أصحابه بأن يكشفوا كتفا ويسرعوا فى السعى وطواف الإفاضة فى الأشواط الثلاثة الأولى ، وقال لصحابته رضوان الله عليهم :

(رحم الله إمرأ أراهم من نفسه قوة) . .

وهذه الهرولة ليست مطلوبة فى طواف القدوم ولا فى طواف الوداع .

لقد كان المسعى فى الماضى سوقا . . وكان فيه مكان يجلس الناس فيه ويشاهدون السعى ، وليس مطلوبا منك أن تهرول إلا إذا كان المكان أمامك ليس مزدحما . . أما إذا كان مزدحما فلا تزاحم وأرفق بمن حولك من المسلمين . . والهرولة فى السعى تتم بين علامتين خضراوين موجودتين فى المسعى . .

وعلى العموم فإن المزاحمة التى تؤدى إلى الإيذاء غير مطلوبة . . فأنت مثلا تزاحم عند الحجر الأسود لتلمسه أو تقبله . . مطلوب منك أن تزاحم فى أداء شعيرة وقف فيها العقل . . لأن هذا دليل على يقين إيمانك وشدة تمسكك بعمل فعله الرسول صلى الله عليه وسلم . . ولكن مطلوب منك ألا تؤذى أحدا . . والذى يتعب الحجاج فى أداء مناسك الحج هو سلوك بعض الحجاج أنفسهم . . فمثلا إنسان يريد أن يطوف من الناحية الضيقة القريبة من الكعبة ولا يريد أن يطوف من الناحية الواسعة . . مع أن كل واحد منا لو طاف دون أن يحاول أن يتقدم على غيره . . أو يضايقه أو يصطدم به . . لتم كل شىء فى سكينة ويسر . .

مائة وعشرون رحمة فى الكعبة

والحق سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر .. وكل من فى الحرم له ثوابه .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إن الله يهبط فى الحرم (الكعبة) مائة وعشرين رحمة .. ستون منها للطائفين ، وأربعون للمصلين ، وعشرون للناظرين) ..

إنك إذا جلست تنظر إلى الكعبة نزلت عليك الرحمة .. وأنت عندما ترى الكعبة وتنظر إليها تختفى كل همومك ولا يبقى فى بالك إلا الله سبحانه وتعالى .. ولو جلست ساعات أمام الكعبة فإن نظرك لا يتحول عنها .. ولا تستطيع أن تنزع نفسك منها ، مادمت جالسا أمامها .. وإذا أردت تفسيرا لذلك .. فإن فى النفس البشرية ملكات لا يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى ..

وبعد أن تنتهى من طواف الإفاضة تتحلل الإحلال الأكبر .. ولا يصبح شيء محرم عليك من محظورات الإحرام .. والذى يؤدى العمرة أولا . ثم يتحلل ويظل فى مكة إلى أن يأتى موعد الحج فيحرم .. هذا إسمه تمتع بالعمرة إلى الحج .. أى انه جمع بين عمرة وحج فى زمن واحد ، ولكن ليس بإحرام واحد .. بل أحرم للعمرة وطاف وسعى

سعيها . . ثم تحلل ليحرم من جديد وقت إحرام الحج . .
نقول فى هذه الحالة وجب على المتمتع هَدْىٌ . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾

(من الآية ١٩٦ من سورة البقرة)

بعض الناس يقول لابد أن يذبح الهدى فى منى ، وبعضهم يقول إذبحه فى مكة ، وبعضهم يقول لابد أن يذبح قبل الحج . . وآخر يقول لابد أن يذبح بعد الحج . .

إن النص القرآنى رتب الهدى على التمتع . . حتى إنه قيل لابد أن تذبحه فى المكان الذى يبدأ فيه إستمتاعك وهو المروة فالمتمتع يذبح الهدى فى مكة . .

ولكن العلماء إختلفوا فى العمرة . . فقال بعضهم أن العمرة ليست واجبة . . وليست فرضا بل هى سنة ، وقال بعضهم إنها واجبة . . وفى رأيى أنه لابد أن يجتمع العلماء ليصفوا هذه المسائل ويصلوا فيها إلى رأى محدد . . والذين قالوا إن العمرة سُنَّة . . لم يلتفتوا إلى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١٩٦ من سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ

﴿ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾

(من الآية ١٥٨ من سورة البقرة)

لماذا يأتى الله دائما بالعمرة بعد الحج .. وما معنى الحج ؟ وما معنى العمرة ؟

كلمة الحج معناها فى اللغة القصد ، بشرط أن يكون ما تقصده شيئا عظيما .. فلا تقل مثلا حججت إلى المطعم لآكل .. ولكن تقول حججت إلى عظيم القضاة لأسمع الحكم . والشرع لم يجد أعظم فى الكون من بيت الله .. فكلمة الحج معناها شرعا قصد بيت الله الذى قال الله سبحانه وتعالى عنه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ من سورة آل عمران)

إذن فالحج هو زيارة بيت الله .. والحج له أشهر معلومة .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ
وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾

(من الآية ٩٧ من سورة البقرة)

ونحن حين نستنبط أحكاما من كتاب الله ، لابد أن نأتى

بكل الآيات التى وردت فى القرآن الكريم والمتعلقة بهذا الموضوع .. فلا نأخذ حكما من آية فى غياب آية أخرى .. والله سبحانه وتعالى عطف العمرة على الحج فى قوله جل جلاله : « فمن حج البيت أو اعتمر » .. وقوله سبحانه : « وأتموا الحج والعمرة لله » .. إذن لابد أن تكون فرضا وواجبا .. عندما يأتى الله تبارك وتعالى فى سورة براءة يقول :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ٢ من سورة التوبة)

كلمة الحج الأكبر تشعرك أن هناك حجا آخر ولكنه ليس أكبر .. هناك حج كبير ، لأن الذى بعد الأكبر فى المنزلة هو كبير .. وبعد الكبير صغير .. إذن فهناك حج أكبر وحج كبير .. الحج الذى يشهد الناس فيه موقفا واحدا ، وهو الوقوف بعرفة ، هذا هو الحج الأكبر .. لأن كل الحجيج يجتمعون فى عرفة فى مكان واحد ، فى وقت واحد ، ولكن العمرة ليس لها وقت محدد ..

ان المعتمرين يأتون لأدائها على مدار السنة وهم لا يجتمعون فى مكان واحد مثل يوم عرفة .. عندما يقول الله جل جلاله : « ولله على الناس حج البيت » .. نأخذها على عمومها حجا كبيرا إذا كان فى عموم الزمن .. وعلى خصوصها حجا أكبر إذا كان فى خصوص الزمن .

الصلاة خارج المسجد الحرام

ويجب علينا أن نستوعب بعض القضايا التى تتعلق بالمسجد الحرام فى موسم الحج . المسجد يزدحم بالحجيج . . وكثير من الناس يتزاحمون على دخول المسجد فى الوقت الذى يتزاحم آخرون على الخروج . . فيصطدم الداخلون والخارجون . . وبعضهم لا يجد مكانا للصلاة داخل المسجد . . والسبب أنهم يعتقدون أن الصلاة داخل جدران المسجد مضاعفة الثواب . . أما خارجه فلا .

ونقول لهؤلاء : إذا ازدحم المسجد وامتلأ وصلى الناس خارجه وكانت الصفوف موصولة فى خارج المسجد وعلى عتبات أبوابه . . وفى الشوارع والميادين الملتصقة به . . بحيث لا توجد فجوة للمرور . . فكأنها تصلى فى المسجد الحرام ، حتى وإن امتدت إلى صنعاء بشرط ألا تنقطع الصفوف . . ويجب توعية الحجيج بأنه فى حالة ضيق المسجد بالمصلين وصليت خارج المسجد فإن لك نفس الثواب . . مادامت الصفوف متصلة . . فإذا انتهت الصلاة تنتهى المسجدية بالنسبة للطريق . .

ويجب أن ننبه إلى ظاهرة حجز الأماكن فى المسجد الحرام . . بعض المصلين من أهل مكة أو غيرها يحجزون أماكن فى الصفوف الأولى . . هذه الأماكن ليست م

حقهم . . لأن الصف الأول لمن دخل المسجد أولا . . لأنه الأحق به . . والأصول فى المساجد عموما أن يجلس كل واحد بجانب أو خلف من سبقه فى الدخول . . فإذا امتلأ الصف الأول يأتى الصف الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع . . بحيث كل من يأتى يجد المكان المناسب له . .

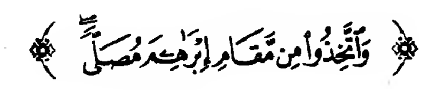
لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . عن حجز الأماكن فى المساجد لأنها محاولة للتميز فى مقام الحضرة الإلهية التى يتساوى فيها الجميع . . ولا يوجد مكان يحجز فى المسجد إلا مكان الإمام . . ويجعل له طريق بحيث يستطيع أن يذهب ليؤم الناس . . دون أن يتخطى الرقاب أو يؤذى أحدا . .

شيء آخر هو تسوية الصفوف فى الكعبة . . المحيط القريب من الكعبة يكون أقرب إلى الاستدارة . . وإذا اتسعت الصفوف وتمت الصلاة فى الأروقة وتحت الأعمدة وتحت المبانى . . نجد أن السجاد يحدد وقوف المصلين . . السجاد نفسه دائر حول الكعبة . . ولكن فى الأروقة والممرات لا نجد السجاد .

إذا قال الإمام فى الكعبة : سووا صفوفكم . . فليس معنى هذا أن يكون الصف معتدلا ، ولو حجبت الأعمدة الكعبة عنهم . . نقول ان الذى يصلى فى الكعبة لا يصح أن يصلى متجها إلى جهة الكعبة ، ولكن إلى عين الكعبة يراها أمامه . . إن الناس يفهمون أن تسوية الصفوف معناها إستقامة الصف ، وهذا ليس صحيحا ، لأن الكعبة هى التى تحدد

إتجاهك بحيث ترى الكعبة ، والإستقامة هنا على حدود أضلاع الكعبة . . هذا إذا كنت تصلى فى الكعبة . . إما إذا كنت تصلى وأنت لا ترى الكعبة فيكفى الإتجاه إليها . .

هناك شيء إسمه لزوم مالا يلزم فى الحج فما هو ؟ إننا عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :



(من الآية ١٢٥ من سورة البقرة)

نجد أن هذا الكلام فى ظاهره أمر . . والواقع غير ذلك . . إذ هو للإباحة . . فليس معنى الآية هو أن مقام إبراهيم وحده هو المصلى فى الكعبة . . ولكن مقام إبراهيم كان يقف بين الكعبة وبين بعض المصلين . . فكانوا يتحرجون من أن يصلوا خلف المقام لأنه يحجزهم عن الكعبة ، فلا يصلون خلفه . . لأن الذى يصلى خلفه يكون المقام حائلا بينه وبين الكعبة . .

الله سبحانه وتعالى رفع هذا الحرج وقال : « وإتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » . . أى لا حرج فى أن تصلوا فى هذا المكان . . ولا مانع أن يكون المقام حاجزا بينكم وبين الكعبة . .

فى نهاية الطواف يصلى الناس ركعتى سنة ، ولما كان الطائفون كثيرين . . فإن هذا المكان يزدحم إزدحاما شديدا وخصوصا فى موسم الحج . . ولتفادى التكدس الهائل فى هذا

المكان . . أرادوا فى الخمسينات أن ينقلوا مقام إبراهيم من مكانه الحالى إلى مكان آخر بعيد . . وكان مقام إبراهيم فى ذلك الوقت حوله أبنية وأعمدة وسقف ويحتل مساحة كبيرة مما يجعل الطواف صعبا . . وفعلا بُدِىءَ فى بناء مقام جديد وتقرر أن يأتى الملك سعود رحمه الله لينقل الحجر إلى مكان المقام الجديد . . لكن قبل أن يتم النقل بيومين وصلت برقية طويلة جدا إلى القائمين على الأمر بأن هذا العمل لا يصح أن يتم .

لقد صدر الأمر بوقف العمل فى المقام الجديد . . إلى أن يبت بواسطة العلماء فى هذه البرقية . . وقرر العلماء فعلا عدم جواز نقل مقام إبراهيم من مكانه الحالى . . فتقرر هدم الأبنية التى كانت حول المقام وعمل غلاف زجاجى على قدر الحجر لا يأخذ من المكان إلا مساحة قدمى إبراهيم . . كما هو موجود الآن . . وأصبح يراه الناس ، لأنه من الآيات التى لابد أن يراها كل من يحج بيت الله الحرام . .

ويجب أن نعلم انه لا فرق فى الثواب والأجر بين الطواف حول الكعبة أو السعى بين الصفا والمروة فى الدور الأول أو الثانى أو الثالث . . لأن المسجد جوه مسجد حتىَ السماء السابعة . . وكذلك الأرض كلما نزلنا إلى أعماقها فهى مسجد . .

ولابد أن نتحدث عن زمزم . . وزمزم تمثل شيئا مُهِمًّا فى العقيدة . . فبصرف النظر عن كونها شفاء للمرض وطعاما يملأ المعدة . . فإنها تمثل رمزية طلاقة قدرة الله ، وعدم الاعتماد

كلية على الأسباب . . فعندما يشرب منها الحجيج تذكرهم برحمة الله فى فتح الأبواب المغلقة عندما لا تجدى الأسباب . .

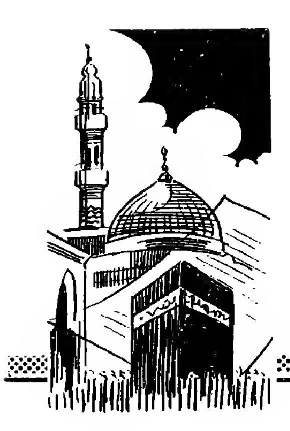
ويجب أن ننبه على أن بعض الناس يستهينون بمناسك الحج وخصوصا فى منى حيث يقوم عدد كبير منهم بالتوكيل فى رمى الجمرات بحجة الزحام . ونقول لهم : ان الزحام لا يثبت إلا إذا ذهبت لرمى الجمرات ولم تستطع . وكما قلنا فى مناسك الحج بل وفى كل العبادات لابد أن تأخذ بالأحوط ، ولا تترك شيئا فى تركه شبهة . . فالحج ليس نزهة . . ولكنه عبادة لها مناسك لابد أن تؤديها . أو تفدى بذبيح . .

الآن وقد مَنّ الله عليك بحج بيته الحرام وأداء نسكه فإنك تستعد لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة وهذا ما سنتناوله بعون الله فى الفصل التالى . .





الفصل السادس



زيـارة رسول الله

طواف الوداع يجب أن يكون آخر عمل لك فى مكة قبل مغادرتها إلى بلدك أو إلى المدينة المنورة . . وهذا الطواف لا يسقط إلا فى حالات إستثنائية ، فهو مطلوب من الجميع . ماعدا المرأة الحائضة . . فلا نقول لها : إنتظرى إسبوعا حتى تطوفى طواف الوداع . ولكن عليها فى طواف الإفاضة أن تنتظر . لأنه ركن فى الحج . .

وطواف الوداع إختلف فيه العلماء . . هل هو سنة ؟

المالكية والأحناف قالوا : إنه سنة والإمامان أحمد والشافعى قالا : إنه واجب . ما الفرق بين الفرض والواجب ؟ الفرض ثابت بدليل ليس فيه شبهة ، والواجب يثبت بدليل ظنى ، والأحناف وحدهم هم الذين يفرقون بين الفرض والواجب . ولكن عند غيرهم يكون الفرض مثل الواجب . .

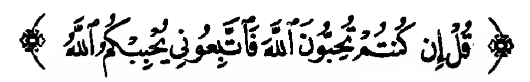
لماذا إذن لا نأخذ بالأحوط ؟ لماذا لا نتم مناسكنا إتمام إتقان لا يترك مجالا لأى شك . . فالذى لا يطوف طواف الوداع لابد أن يذبح . . عليه فدية هى فدية طواف الوداع .

ولكى يكون الطواف مرفوعا إلى الله ومقبولا منه إجعله آخر شيء تفعله قبل أن تغادر مكة . لا تطف طواف الوداع ثم تمكث فى مكة بعد ذلك لتشترى أشياء من السوق ، أو تجلس فى الفندق ، أو تحاول أن تراجع ماذا تريد ، ماذا أحضرت

لأقاربك وأصدقائك . بل طف طواف الوداع واخرج منه إلى السيارة التى تنقلك لخارج مكة فورا . . فليس هناك فى هذا الكون ما هو أعظم من بيت الله . .

لكن رحلة الحج بالنسبة للناس لا تتم نفسيا إلا بزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة . فالذين يسافرون قبل موعد الحج بفترة يذهبون إلى المدينة أولا ، ثم يحرمون منها إلى مكة لأداء مناسك الحج ، والذين يصلون قبل الحج بأيام يقضون مناسك الحج ، ثم بعد ذلك يزورون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . .

بعض الناس يقول : إن الذى يحج ولا يزور رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه لم يحج . . وهذا معنى نفسى ، وليس حكما شرعيا . لأن النفس المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقبل أن تذهب إلى الحج دون أن تزور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . هذه مسألة منطقية ، فالمؤمنون يحبون رسول الله عليه الصلاة والسلام . . والله سبحانه وتعالى يقول :



(من الآية ٣١ من سورة آل عمران)

الزيارة ليست ركنا .. ولكن

ولا يصدق إيمان مسلم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه . . وهذه الزيارة وإن لم تكن من أركان الحج . . إلا انها مسألة نفسية قلبية . والله سبحانه وتعالى شاءت إرادته أن يقيم رسوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وكان يقول لأهلها : « المحيا محياكم والممات مماتكم » أى أنه صلى الله عليه وسلم سيحيا هنا ويموت هنا . . وقد أعلمه الله بذلك . . حتى لا يتعارض هذا مع قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

(من الآية ٣٤ من سورة لقمان)

وقد حدث حينما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم بعد موقعة حنين . فأعطى الناس ولم يعط الأنصار ، فأحس الأنصار بالألم فى أنفسهم أن يحرمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم . فقال صغار السن منهم : يغفر الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . يعطى قريشا ، ويتركنا . وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟ ولما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك دعاهم وأدخلهم فى قبته ، وقال : يا معشر الأنصار ! أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير . وتذهبون برسول الله ؟ قالوا : بلى . فقال صلى الله عليه وسلم : لو سلك الناس واديا ، وسلكت الأنصار شعبا

لسلكت شعب الأنصار ، لقد أعلم الرسول الأنصار أن موته سيكون فى المدينة . .

وإذا قال أحد : كيف يحدث هذا ولا يعلم الغيب إلا الله نقول : نعم لا أحد يعلم الغيب ، ولكن يُعْلِمُهُ الله تعالى لمن يشاء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم أمره الله فى القرآن الكريم بأن يقول :

﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾

(من الآية ٥٠ من سورة الأنعام)

إذن فزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ليس منسكا من مناسك الحج . . ولكنها أدب من آداب الإسلام . .

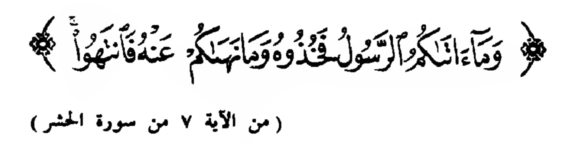
ولقد اختار الله سبحانه وتعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يموت فى المدينة ، تعظيما لشأنه ورفعا لمقامه . . وحتى لا تكون زيارته تبعا لزيارة بيت الله الحرام ، وإنما تكون زيارته مستقلة وخاصة به . . ويأتى الناس للحج ، وبعد أن ينتهوا من قضاء مناسكهم يركبون السيارات ويقطعون مسافة حوالى خمسمائة كيلومتر بين الجبال والصحراء ليزوروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . لتكون زيارته خاصة به ، ونابعة من عشقه وحبه ، وليست بجانب أى شىء آخر بل هى تقصد بذاتها . . وتقطع لها المسافات الطوال . .



وعندما نصل إلى المدينة المنورة ، فإن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الحرم المدنى له حدوده ، كما أن الحرم المكى له حدوده .. وفى الحرم المدنى لا ترتكب المخالفات ولا يصاد الطير .. ولا يهيج صيد ليخرج خارج الحرم فتصطاده . ولا تقطع شجرة ولو كانت مليئة بالأشواك .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(إن إبراهيم حرم مكة ، وأنا حرمت المدينة) ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى وهو وحده بين الرسل الذى أعطى حق التشريع . يقول الله تعالى :



﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

فالله سبحانه وتعالى أمن رسوله صلى الله عليه وسلم على أن يشرع للناس .

والحرم فى المدينة يحدد بأنه بين لابَتَيْها ، واللاَّبةُ هى الحجارة السوداء ، وتوجد إحداها ناحية الميقات فى أبيار على ، والثانية

فى الناحية الآخرى . . فمن كان بين هاتين العلامتين . . فهو فى الحرم المدنى وعليه أن يلتزم حدود الأدب التى التزمها فى الحرم المكى . .

وأنت حينما تدخل المسجد الحرام فى مكة ، فتحية المسجد هى الطواف بالكعبة . . أما فى المسجد النبوى . . فتحية المسجد هى صلاة ركعتين تحية المسجد . . ثم تبدأ زيارتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . زيارة يملأها الأدب والخشوع . . تستحضر فيها عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانته عند ربه ، ثم بعد ذلك تتجه نحو المقصورة . . وهى المكان الذى دفن فيه الرسول عليه الصلاة والسلام وتسلم عليه . تقف وتقول : السلام عليك يا رسول الله . ثم تسلم على صاحبيه أبى بكر وعمر ، وهما مدفونان بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونحن أمرنا أن نسلم على كل من انتقل إلى جوار الله . . فعندما نمر على المقابر نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين . . أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . .

لو انه لم يكن للسلام عندهم إستقبال إنفعالى ، فإن التسليم يكون عبثا . . فإذا كان هذا بالنسبة للأشخاص العاديين ، فكيف ذلك بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى المشركين فى أول غزوة إيمانية فى بدر ، فقد وقف صلى الله عليه وسلم ينادى

المشركين بأسمائهم : يا فلان ! يا فلان ! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فقال الصحابة يا رسول الله : أتكلمهم وقد جيفوا ؟ أى أصبحوا جيفة .. فقال : والله ما أنتم بأسمع منهم .. ولكنهم لا ينطقون ..

بعض الناس يعتقد أن السماع لا يكون إلا بالأذن ، والرؤية لا تكون إلا بالعين وهذا صحيح بالنسبة للأحياء .. أما بالنسبة للموتى فالأمر مختلف .. لأن لكل مرحلة من مراحل الحياة قانونها .. فالحياة الدنيا لها قانون وحياة البرزخ أيضا لها قانون .. والحياة الآخرة لها قانون .. والإنسان يعيش بقانونين : قانون اليقظة ، وقانون النوم .. إلا أن قانون النوم أكثر شفافية من قانون اليقظة .

إنك وأنت نائم ترى الأموات وتتحدث معهم وترى أشياء غريبة عن العالم الذى نعيش فيه .. كيف رأيت وعيناك مغمضتان ؟ لابد أن هناك حواس أخرى ترى غير العين .. فإذا كان هذا يحدث فى قانون النوم .. فقانون الموت أشف من قانون النوم .. والبعث أكثر القوانين شفافية ..

ولابد أن تفهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسره منك أن تضعه فى موضع أعلى من موضعه .. فإياك أن تغالى كما غالت النصارى فى عيسى بن مريم وإنما تقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته يا خاتم المرسلين ورحمة الله للعالمين .. نشهد أنك أديت الرسالة ، وبلغت الأمانة ونصحت الأمة .. كل هذا بصوت خافت ليس فيه علو

ولا تشنج . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

إن المطلوب فى هذا المكان أن يكون الصوت خافتا خاشعا متأدبا لا يعلو ، بلا زحام أو دفع . أو شجار أو احتكاك ، بل إنك لابد أن تستحضر فى ذهنك انك فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكرم خلق الله ، وأقربهم إلى الله ، وأنك حينما تحييه فهذا شرف كبير لك . . وتشهد له شهادة يشفع لك بها يوم القيامة : شهادة حق فى إنه أدى الرسالة ، وبلَّغ الأمانة ، ونصح الأمة . ثم بعد ذلك تخطو خطوة وتسلم على سيدنا أبى بكر الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخطوة وتسلم على سيدنا عمر الخليفة الثانى . . ثم تدعو الله وأنت واقف عند رسوله بما تشاء ، أو بما يفيض به الله عليك . وإذا كان أحد قد وصاك أن تسلم له على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإفعل ذلك فتقول : السلام عليك يا سيدى يا رسول الله عنى وعن فلان . . ثم بعد ذلك تدعو بما تشاء . .

وليس معنى وقوفك أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلامك عليه أن تعد ما تقول أو تلقى خطبة كما يفعل الخطباء

فهذا موقف أبلغ البلغاء فيه يصير أبكم .. لا يجد ما يقوله لماذا ؟ لأنه فى هذا المقام تحس أن أساليبك المحدودة لا تقوى على التعبير عما فى نفسك حبا لرسول الله إنك لا تجد ما تقوله ، ومهما قلت فلن تفى رسول الله صلى الله عليه وسلم حقه .. ولكن يكفى أن تقول الصلاة والسلام عليك يا رسول الله .. وعلى آلك وأصحابك ، وعلى أنبياء الله ورسله ..

لقد قطعت مئات الكيلومترات لتأتى أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلم عليه فاجعل السلام مليئا بالشوق مليئا بالمحبة .. وتذكر قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

(سورة النساء)

وأنت واقف أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم إدعه أن يستغفر لك الله ، فهذا باب مغفرة .. إدعه أن يتوب الله عليك ، فهذا باب توبة .. إن كنت قد ظلمت نفسك فأنت واقف فى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

إن الإنسان فى مثل هذه المواقف الجليلة والعظيمة لا يملك إلا أن يخشع ويتوجه إلى الله بقلبه سائلا إياه أن يضع على لسانه ما يرضى ربه ورسوله .. وما يقربه إليهما .. سائلا الله دوام التوفيق بدوام الحج والعمرة .. وأن يحسن الأدب فى حضرة رسول الله وفى مدينته كلها ..

وهذا دعاء أحد العارفين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد نموذجا مثاليا لما يجب أن يكون عليه الدعاء :

« إلهى بجاهه عندك ، ومكانته لديك ، ومحبتك له ، ومحبته لك . وبالسر الذى بينك وبينه . أسألك أن تصلى وتسلم على رسول الله وعلى آله . وضاعف اللهم محبتنا له ، وعرفنا بحقه ، ووفقنا لاتباعه ، والقيام بآدابه وسنته ، ومتعنا بحضرته . وأسعدنا بمكالمته . وارفع عنا العوائق والوسائط والحجب . وشنف أسماعنا منه بحلو الخطاب . وأهلنا للتلقى منه . والأخذ عنه . واجعل صلاتنا عليه نورا فائضا ماحيا عنا كل ظلمة وظلم . وكل شك وشرك ، وكل إفك وغفلة . واجعلها وسيلة لأرقى مراتب التخصيص . حتى لا تبقى فينا ربانية لغيرك . وحتى نصلح لحضرتك ، ونكون أهلا لخصوصيتك ، متمسكين بآدابه صلى الله عليه وسلم ، وبالحبل المتين ، مستمدين منك يارب ومن حضرتك العلية كل توفيق فى أمور الدنيا وأمور الدين » . .

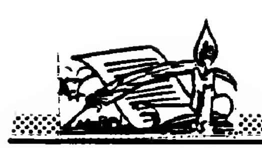
وعليك وأنت فى المدينة أن تكثر من الجلوس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تشغل نفسك بالعبادة وحدها . فإذا صليت فسبح ، وإذا سبحت فصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صليت على الرسول الكريم ، فإدع لك ولمن تحب . .

وإياك أن تشغل نفسك إلا بالعبادة . ولا تفكر فى شىء

إلا فى الله ورسوله .. وإياك أن تتحدث فى أمور الدنيا ، وإلا ارتكبت ذنبا عظيما ..

إن الذى يتحدث فى أمور الدنيا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصيبه عذاب أليم .. وتضيع منه الدنيا كلها .. فإذا قصدت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فللصلاة ، فإذا انتهت الصلاة فاقرأ القرآن .. واقرأ منه ما استطعت .. فإن قراءة القرآن فى حضرة من نزل عليه القرآن لها خشوع ولها هيبة ولها جلال لا يحسه إلا من جلس يقرأ القرآن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ..





وإحرص أن يكون جلوسك فى الروضة الشريقة . فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنها :

(ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة) . .

وهى محددة فى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام تحديدا خاصا . بحيث يسهل عليك أن تتعرف على مكانها . . ولكن لابد أن تأتى إلى المسجد مبكرا . . لأن الناس كل الناس يحرصون على الجلوس فى الروضة الشريفة . . فإذا جلست فى الروضة فصل وإقرأ القرآن وسبح . ومادمت فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشغل نفسك بالعبادة . .

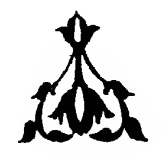
اشغل نفسك بالآخرة ، اشغل نفسك بالحياة الدائمة القادمة . إخلع الدنيا خارج المسجد تماما كما تخلع نعليك ، ولا تجعلها تدخل معك إلى المسجد . فهذا مكان فيه العبادة متقبلة ومضاعفة ، والدعوات مستجابة . . وأبواب السماء مفتوحة . . فلا تضيع وقتك فى أى شىء يلهيك عن الله ورسوله . . وكلما أكثرت من الجلوس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ملأت قلبك من نفحات الإيمان . . قد لا تفهمها ولكنك تحسها . .

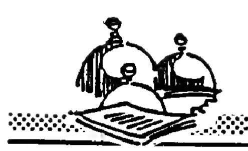
إنك كلما طال بقاؤك إزددت قربا من الله ورسوله ، وبعدا

عن المعاصى فإذا أمضيت فى المدينة ما شاء الله لك ، وأردت أن ترحل فكما أديت طواف الوداع ، أدخل وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم عليه واجعل هذا السلام هو آخر عمل لك فى المدينة . .

ولقد علمنا سيدنا الإمام على رضى الله عنه وكرم الله وجهه ما نقوله من أدب الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« السلام عليك يا سيدى يا رسول الله . عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك ، السريعة اللحاق بك . . السلام عليكما سلام مودع . لاقان ولا سئم . فإن ننصرف فلا عن ملالة . وأن نمضى فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين » . . أو تقول أى دعاء آخر فى هذا المعنى وتطلب أن تعود مرات ومرات لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم مادام الله أحياك .





وفى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام توجد أماكن مباركة كثيرة . . فهذا المكان الذى كان ينزل فيه الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المكان الذى شهد لقاء الإيمان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين جبريل عليه السلام .

إذهب إلى هذا المكان وهو محدد وصل فيه ركعتين . ثم اجلس قليلا . وتأمل ماذا كان يحدث فيه . . ومنهج السماء ينزل إلى الأرض . وكيف كان لقاء الملك ببشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاء صعبا ، حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع صوتا كصلصلة الجرس أو كطنين النحل ، ويتصبب عرقا فى أشد الأيام برودة . ويقول : زملونى . زملونى . وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا لامست قدمه الشريفة قدم أحد الصحابة ساعة الوحى يحس بها كأنها جبل من ثقلها . وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الناقة وجاءه الوحى فإنها لا تستطيع السير ، ولا حتى الوقوف على أقدامها . بل تبرك على الأرض . .

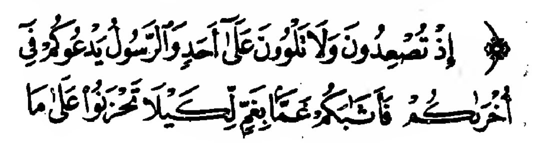
منزل الوحى هذا ستراه فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجلس فيه ، وتتأمل تلك الفيوضات التى كانت تحدث فى هذا المكان . وذلك الكتاب الذى نزل على رسول

الله صلى الله عليه وسلم هدى ورحمة للعالمين . . وترفع يديك بالدعاء فهذا مقام للاجابة ، وتجلس ما شاء لك الله فى مهبط الوحى وتصلى فيه الفروض إن استطعت . .

وزيارتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن تقف عند هذا الحد . بل لابد أن تستشعر عظمة الإسلام فتزور مكان موقعة بدر : الموقعة التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ونصر الحق على أئمة الكفر . . نجد المكان كما هو . . وترى أين كان يقف جنود الإسلام ، وأين كان يقف الكفار ؟ وترى مقابر المسلمين الذين استشهدوا فى بدر . .

إن مكان هذه الموقعة يذكرك بحدث هام فى تاريخ الإسلام . . هو أول إنتصار للإيمان على الكفر . . وللحرية على العبودية . . ولدين الله على عبدة الأصنام . . إن هذه الأرض شرفت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم . . وشرفت بدماء شهداء المسلمين . .

وتنتقل من بدر إلى أحد . . تلك المعركة التى وقعت عند جبل أحد ، والتى خالف فيها الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يغادروا أماكنهم فوق الجبل . . فخالفوه ونزلوا يريدون الغنائم فكانت الهزيمة . . فلم يكن الله لينصرهم وقد خالفوا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم . . واقرأ قوله تعالى :


﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا

﴿ فَـاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهناك نجد قبر حمزة سيد الشهداء الذى وقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ الآية الكريمة :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هذا هو التاريخ الحى للإسلام .. موجود فى المدينة .. تاريخ شاهد على كل واقعة حدثت ، وموجود مكانها ومكان شهدائها .. حتى المسجد ذو القبلتين الذى كان يصلى فيه المسلمون متجهين إلى بيت المقدس ، وعندما نزل الأمر بتحويل القبلة إتجهوا إلى المسجد الحرام .. كل هذا موجود فى المدينة .. التاريخ الحى للإسلام .. ذلك أمر الله سبحانه وتعالى أبقى هذا التاريخ ليكون شاهدا لكل الأجيال على الدين الخاتم .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو الرسول الوحيد الذى يعرف يقينا المكان الذى دفن فيه .. والإسلام هو الدين الوحيد الذى حفظت كل أحداثه بدقة ليشهدها من يريد ..

إن علينا أن نتأمل فى هذه الأماكن والمشاهد .. لنخرج بالدروس والعبر .. فإنها نعم الزاد فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ..

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكتب لنا ولكم الحج والعمرة مرات ومرات .. وأن يتقبل حجاتنا وعمراتنا وأن يجعلنا مغفورى الذنب ، متقبلى التوبة ، فى قلوبنا حب بيت الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم .. إنه نعم المجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..



الفهرست

الفصل الأول

صفحة

لبيك اللهم لبيك ٥
الحج أشهر معلومات ٩
ابراهيم يؤذن بالحج ١٢
اتمام نعمة الله ١٦
التأدب مع أجناس الكون ١٩
البكاء عند البيت ٢١
تعظيم الكعبة ٢٣

الفصل الثانى

مقام ابراهيم ٢٥
الكعبة .. علامة البيت الحرام ٢٨
البركة فى الكعبة ٢٩
الآيات البينات ما هى ٣١
من دخله كان أمنا ٣٤
الاختيار العام .. والتكليف الخاص ٣٩

الفصل الثالث

إلى عرفات الله ٤٣
التجليات فى عرفه ٤٦
يوم غفران الذنوب ٤٨
سبب التسمية ٥١
الافاضة من عرفات ٥٧
الغاء امتيازات قريش ٥٩

الفصل الرابع

رجم الشيطان ٦١
مغزى رجم الشيطان ٦٧
الطاعة والعقل ٧٢

الفصل الخامس

اجتهادات العلماء ٧٧
الأخذ بالأحوط ٨١

ذبح الهدى ٨٣
التحلل الأكبر والتحلل الأصغر ٨٥
مائة وعشرون رحمة فى الكعبة ٨٧
الصلاة خارج المسجد الحرام ٩١

الفصل السادس

زيارة رسول الله ٩٧
الزيارة ليست ركنا .. ولكن ١٠٠
والمدينة .. حرم ١٠٢
فى الروضة الشريفة ١٠٩
هنا نزل القرآن ١١١